

2274
.8753
- 323
V.2

2274.8753.323
al-Sharabāsi
Butūlāt

V.2

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library



32101 074331271

UAR. 2975. al. sharaḥat.

Butulāt

(Vol. 2)



الكتاب الماسي

بطولات إسلامية وعربية

المجموعة الثانية



بقلم
احمد الشرباصي

al-Sharabāṣī, Aḥmed

الكتاب الماسي

Butūlat

بطولات اسلامية وعربية

المجموعة الثانية

بقلم

احمد الشرباصي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلي ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى
خاتمهم سيدنا محمد ، وآله وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان
إلى يوم الدين ، ونستفتح بالقدى هو خير : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ
أُنَبِّئْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِير » .

8-5-63

72-460

2274

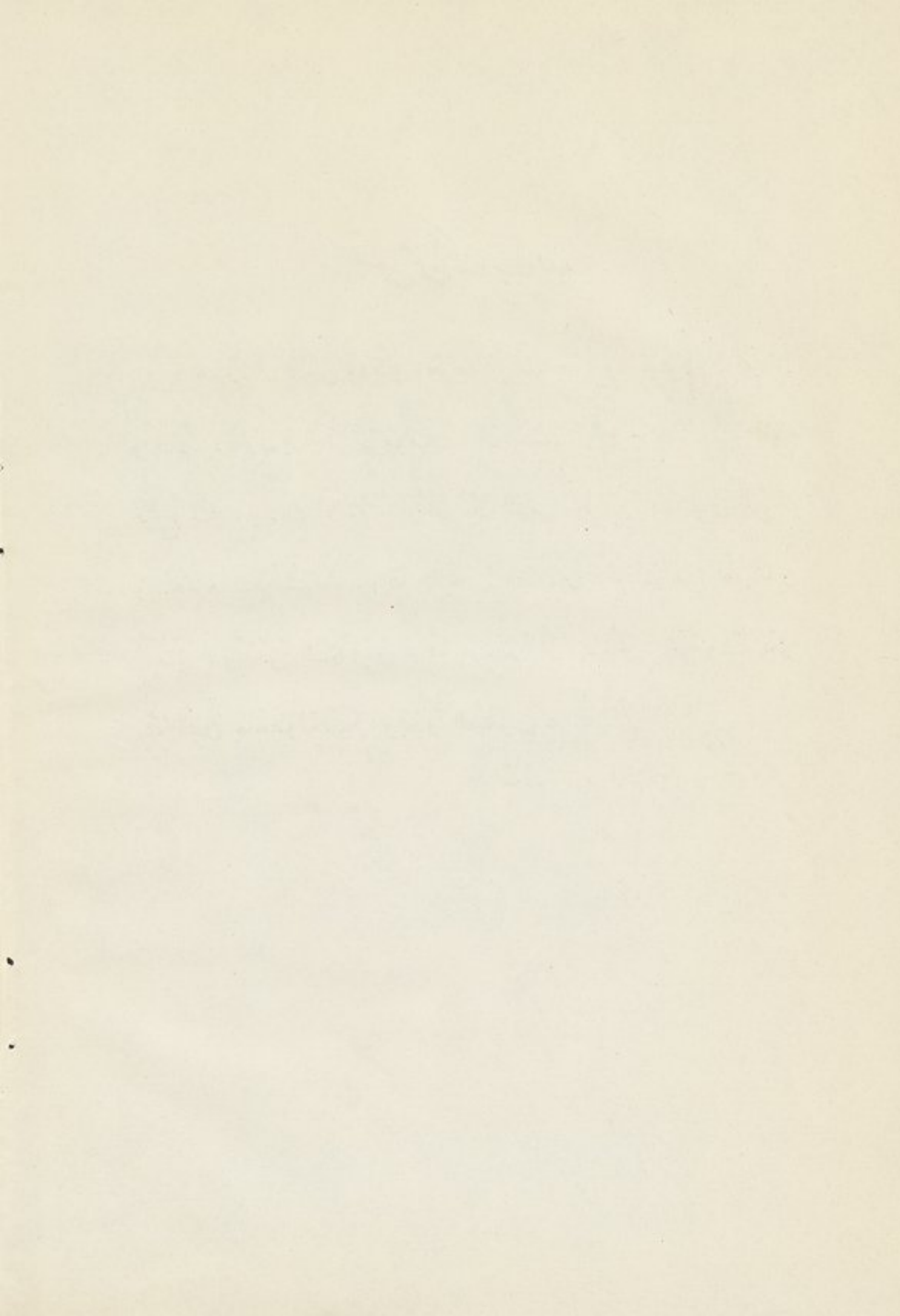
.8753

, 323 v.2

قيس من كتاب الله

« هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ
قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ،
وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا ، وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ
اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

(سورة آل عمران : ١٣٨ — ١٤٢)



شعار

« ما أجمل أن نعيش في هذه الحياة بهمم الأبطال ،
وعقول الرجال ، وقلوب الأطفال ؛ فهمة البطل مجد ،
وعقل الرجل كنز ، وقلب الطفل نور » .

أحمد الشرباصي

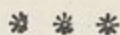
تصدير

منذ قرابة عام قدمت إلى جمهرة القارئين المجموعة الأولى من هذه البطولات الإسلامية والعربية ، وقلت يومئذ في الخاتمة إن هذه المجموعة تستطيع بدوافعها وحوافزها أن تثير الهمم وتقوّي العزائم ، ولم أرد بهذا القول أن أنسب جهداً أو أكسب حمداً للقلم الذي صاغها وصوّرها ، فغاية الشرف والسعادة عند هذا القلم أن يوفقه ولي التوفيق سبحانه وتعالى لشرف الخدمة لبلاده دائماً .

ولئنما أردت أن هذه الصور بعظمة أصحابها الأبطال الذين خلدوا في التاريخ ، والذين فرضوا أسماءهم على سجل الزمن بأعمالهم ومكارمهم ، وحميد صفاتهم التي تفيض بها أخبارهم ، والتي تنبثق من سيرهم ومواقفهم ؛ تستطيع أن تدفع إلى الخير ، وأن تعرض على البر ، وأن تزين للناشئة ولأبناء الجيل أن يتشبهوا بأبائهم وأسلافهم ، وأن ينهجوا نهج الذين سبقوهم في الزمن من جهة ، وسبقوهم إلى المكارم من جهة أخرى .

ولاشك أن عين كل غيور من المصلحين تتطلع إلى أناس عصامين ، لا إلى أناس عظاميين ؛ إلى أناس يقولون كان لنا آباء وأجداد ، وفي الوقت نفسه يقولون : وهانحن أولاء بأعمالنا وجهودنا نسير على طريق هؤلاء الآباء ، وننسج على منوالهم ، ولا نكتفي بالتفاخر أو كلمات التكاثر ، لأن من اقتصر على ترديد سير آبائه ، كان كمن يفخر بعظام ضمته القبور :

لسنا وإن أحسبنا بكرمت يوماً على الآباء نتسل
نبنى كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل مثلما فعلوا



وما كادت المجموعة الأولى تسعى إلى الناس حق تلقفها أيد حريصة على أن تتعرف تاريخها ، وأن تتعلم من سير أبطالها ، وأن تربط بين حاضرها

وماضيها ، وأن تتخذ من حوافز ذلك الماضي وجهود هذا الحاضر أقوى عدة للمستقبل مزهر يكون جديراً بأمة نهضت ووثبت ، وأدركت موعدها مع القدر ، وعادت تبنى مجتمعتها الرشيد السعيد من جديد ، على دعائم من عقيدتها وإيمانها وقوميتها ووطنيتها وإنسانيتها ونزعتها المفطورة على الخير والعدل . وأحسست أن هذه الأيدى الغفيرة التى استوعبت ما تلافته ترنو إلى مزيد من الحديث عن البطولات والابطال .

ولما كنت قد وعدت فى نهاية المجموعة الأولى بأن أعرض أختاً لها أو أخوات ، ما دام الله عزوجل — وهو أكرم مستعان — ييسر الأسباب ويمهد الطرق ، فإنى أحس بفيض من الغبطة حين أقدم هذه المجموعة الثانية ، آملاً ألا تكون نهاية للحديث عن البطولة فى معانيها وفى أهلها ، بل أرجو أن تكون مرحلة جديدة على طريق تمتد موصول .



إن نهم البطن يكون عيباً فى الإنسان ، لأنه يدل على شره وبطنه ، ولكن نهم العقل فى تطلب المعرفة ، ونهم الروح فى تطلب القيم المعنوية والمثل العليا ، ونهم القلب فى تطلب ما يعمره وما يسامره من مشاعر الحق والعدل والخير والجمال ، كل هذه الألوان الرفيعة من النهم العقلى والروحى ، أمور محبوبة محمودة ، تزين صاحبها وترفع من قدره بين الأخيار .

إن فى هذه الأمة الساعية نحو المجد ، الجديرة بالتقدير والحمد ، شباباً لا يقنعون بالقليل من زاد القلب والعقل والروح ، ولا يكادون يرتوون منها نهلاً من ينابيع القيم والمثل ، وإن فى أعناقنا أمانة يجب أن تؤديها إليهم ، وإن علينا تبعة جليلة نحوم ، هى أن نظل على تفجير هذه الينابيع الكريمة القويمة أمامهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، حتى يظلوا يرتوون ويتحصنون ، ويعملون ويحسنون فيما يعملون ، وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة فى الأول من نوفمبر ١٩٦٢ .

أحمد الشرباصى

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين .

الوان من البطولة

البطل في اللغة العربية هو الشجاع الذي لا يكثر بجراحه ، أو الذي يتعرض للموت ويسفك دماء أعدائه ، ولقد تعارف الكثير من الناس على حصر البطولة في تلك الشجاعة الحسية الجسدية القائمة على صلابة البدن ، وشدة العضلات ، وجرأة الإقدام في ميادين القتال والنضال .

ونحن لانكر ما لقوة البدن من مكانة ومنزلة ، بل ونتذكر أن الإسلام قد نظر إلى جسم الإنسان على أنه بناء من يد الرحمن يجب أن يحفظ ويصان ، ونتذكر أن الله قد اختار أحد أنبيائه في الزمن الخالي ، وبسط له في جسمه ، كما بسط له في عمله . وجعل ذلك ميزة له وسبباً ، لاصطفائه على غيره .
فيقول القرآن المجيد :

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْعَمَلِ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ أُصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

نحن لا ننكر هذه المنزلة للبطولة الجسدية ، ولكننا يجب علينا أن نتذكر أن هناك ألواناً أخرى من البطولات قد تفوق بطولة الجسم ، وتعلو عليها أضعافاً مضاعفة .

فالعالم الذي يقنصر نفسه على البحث حق يفيد المجتمع في كشف جديد ، أو اختراع طريف ، أو تعديد قاعدة علمية جديدة ، لا شك أنه يحقق لنا لونا من ألوان البطولة المجيدة العظيمة الخالدة ، وهي بطولة العلم .

ورجل الدين الصحيح الذى ينهض فى ظلمات الزيف والضلال ، فيقف فى وجه الباطل وقفة الطود الأشم ، لا يخاف ولا يهاب ، ولا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يجاهد المنكرات ، ويناضل السيئات ، ويفضح المتجرين باسم الدين ، ويصدع بكلمة الحق ولو أغضبت الخاصة والجمهير ، ويتعرض فى سبيل ذلك للظمن والسب والعنت والإرهاق والتعذيب .

هذا الرجل الداعية المصابر يحقق لنا لو لنا آخر من ألوان البطولة الماجدة ، هى بطولة الدعوة ، والثبات على الحق ، ومناهضة الباطل فى كل مكان .

والوطنى الغيور الذى يرى الوطن مهضوم الحقوق ، ويرى عصبة البنى أو الشر تتآمر عليه ، وتزهق روحه ، أو يرى القائم مقام الإمارة والسلطان يبنى ويطنى ، ولا يعزى إلاّ ولا ذمة ، ولا يعرف عدلا ولا قسطا ، فهب ذلك الوطنى الصادق فى وجهه ليصارحه ببغيه ، وليصد عنه عدوانه ، وليذكره بحساب الشعب والتاريخ والخالق .

ذلك الوطنى الغيور يحقق لنا لو لنا من ألوان البطولة ، هى البطولة الوطنية ، ولذلك جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

والرجل الذى يفرغ نفسه للخدمة العامة والإصلاح الاجتماعى ، فيسكون على الدوام مستعداً لبذل المجهود ، وإغاثة الملهوف ، ونجدة المأزوم ، والعطف على المحروم ، وإرشاد الضال ، وتطبيب المرضى ، ومواساة المكرومين ، وي بذل فى ذلك طاقته ووسعته ، يحقق لنا لو لنا من ألوان البطولة الجليلة ، وهى بطولة النفع العام للناس .

وصديق محمد العظيم يوم قال : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

وحين قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وحين قال : « خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره » .

وحين قال : « خير الناس أنفعهم للناس » .

والرجل الذي يلقى الإساءة بالإحسان ، والقطيعة بالود ، والسيئة بالحسنة ، ويكون مثلاً لجمال الطبع ، وكمال الخلق ، وجلال النفس ، يحقق لنا مثلاً من أمثلة البطولة ، ألا وهي بطولة مكارم الأخلاق .

وقد أشار القرآن إلى هذا اللون من البطولة الصحيحة حين قال :

« وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

كما أشار إليه معاً الإنسانية ، وطبيب البشرية ، محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قال فيما يسند إليه :

« أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأعفو عن ظلمي ، وأن يكون نطقی ذكراً ، وصمتی فسكراً ، ونظري عبراً » .

وها هو ذا الشاعر النبيل يعرض هذه البطولة الأخلاقية في أبيات جميلة له فيقول :

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي مختلف جدًا
أراهم إلى نصرى بطاءً ، وإن هم	دعوني إلى نصر أتيتهم شدًا
وإن أكلوا الحى وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي	زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
وإن ضيعوا غبي حفظت غيو بهم	وإن هم دؤوا غبي هويت لهم رشدًا

ولا أحمل الحقن الدفين عليهم فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم مجل مالى إن تتابع لى غنى وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا

والرجل النقي الابن الزكى الطهور ، الذى لا يرضى الدنية مهبا كانت ضئيلة ،
ولا يقترب العيب مهبا كان قليلا ، ولا يأتى ما يُستحى منه ، ولو كان صغيرا ،
ويكون له من نفسه على حر كاته وكلما نه رقيب عتيد ، ومحامب عنيد . . يحقق
لنا لونا من ألوان البطولة العالية ، وهى بطولة المروءة ؛ ولقد نسبوا إلى
الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال :

« والله لو علمت أن شرب الماء البارد يئلم مروءتى ما شربته طول حياتى ،
والرجل الذى لا يكون كثير المال ، ولا عريض الجاه ، ولا واسع السلطان ،
ومع ذلك هو يعز فى نفسه ، فلا يقبل ضيما ، ولا يسكت على ذل ، ولا يصبر
على هوان ، يحقق لنا مثلا من أمثلة البطولة ، وهى بطولة الشمم والإباء .
وقديما قال عمر بن الخطاب : « يعجبني من الرجل إذا سيم خطه خسف
أن يقول (لا) بملء فيه . »

وقال عمر لعمر بن العاص يوم ضرب ابنه أحد العامة : « متى استعبدتم
الناس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .
ولقد كان الشافعى ينشد :

أمطرى أولوا سماء سرندي ب ، وفيضى جبال تكرر تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ، ونفسي نفس حر ترى المذلة كفر را

وهكذا نجد أن ميادين البطولة كثيرة ، وأن ألوانها متعددة ، وأن بطولة
الجسم قد تكون لونا من ألوانها ، ولكنها ليست كل لون . . فانظر أين
تكون أنت من ميدان البطولة ، وأرنا ما اللون الذى تختاره لتكون بطلا فيه ؟
والله ولى العاملين ؟

بطولة ابياء

نعرف في تاريخ المسلمين العالم القاضي الفاضل أبا الحسن علي بن عبدالعزيز ابن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني قاضي "الرعي"، في أيام الصاحب ابن عباد، وقد كان الجرجاني عالما أدبيا، أبي النفس، كامل الخلق؛ رحل في صباه إلى كثير من البلاد والأمصار، وخالط الكثير من الناس، وجمع أطراف العلوم والآداب، وبرع في الشعر والرسائل والخط والعلم.

ومن كتبه: كتاب تفسير القرآن المجيد، وكتاب تهذيب التاريخ، وكتاب الوساطة بين المتنبئ وخصومه، وقال عنه الثعالبي إنه يجمع خط ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحترى، وينظم عقد الإحسان والإتقان في كل ما يتعاطاه؛ ومن شعره:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعزّ عندي من العلم، فليعلم أبتغي سواء أنيسا ؟
إنما الذل في مخالطة الناس، فدعهم، وعش عزيزا رئيسا !

وذكر عنه الحاكم في تاريخ نيسابور، أنه ورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلثمائة مع أخيه أبي بكر، وأخوه إذ ذاك فقيه مناظر، والجرجاني قد ناهز الحلم، فسمعا معا الحديث الكبير، ولم يزل عليّ يتقدم إلى أن دُكر في الدنيا. وقد مات بالري يوم الثلاثاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، ومُهل تابوته إلى جرجان فدفن بها؛ وصلى عليه القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد.

وللجرجاني قصيدة تدل على علو الهمة؛ وإباء الضيم؛ والترفع على الصغار؛ وهي دستور يجب أن يجعله كل عالم أبيّ نصب عينيه، يقول فيها:

يقولون لى : فيك انقباض ؛ وإنما
أرى الناس من دانا هم هان عندهم
وما كل برق لاج لى يستفزنى
وانى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت
ولم أقض : حق العلم إن كان كلما
إذا قيل هذا منهل ؛ قلت : قد أرى
أنهمها عن بعض مالا يشينها
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجى
أشقى به غرساً ، وأجنيه ذلة ؟
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا

رأوا رجلا عن موقف الذل أحجها
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولا كل من لاقيت أراضه منعما
أقلب كفى إثره متندما
بدا طمع صيرته لى مسلما
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
مخافة أقوال العدا : فيم ؟ أو لما ؟
لأخدم من لاقيت لكن لأخدم
إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو عظموه فى النفوس لعظما
حياء بالأطماع حتى تبهما

وقد وجدت عالما جليلا آخر من علماء الأمة السابقين قال فى مثل ما قال
فيه الجرجاني ، وذلك هو الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد
الذى قيل فيه : إنه العالم المجدد على رأس المائة السابعة ، وقد نشأ تقي الدين فى
بلدة « قوص » وتفقه بها ، واشتهر وذاع صيته ، ورحل إلى القاهرة ، واستقر
فيها . وزاد علواً ومجداً ، حتى كان السلطان ينزل له عن عرشه ويقبل يده . وقد
تولى القضاء بمصر ؛ وترجم له الإمام السبكي فى « طبقات الشافعية الكبرى » ،
ترجمة وافية فارجع إليها ، كما ترجم له ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة » ،
وكان برغم إمامته فى الدين والقضاء : شاعراً ، ومن شعره قوله :

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتهم أهل الفضائل مردولون بينهم
قد أنزلونا لأننا غير جنسهم منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فما لهم فى توقي ضررنا نظر ولا لهم فى ترقى قدرنا همم

فلينما لو قدرنا أن نعرفهم مقدارهم عندنا ، أو لو دروه هم لهم مريحان : من جهل وفرط غنى وعندنا المتعبان : العلم والعدم^(١) !

وقد عارضه أبو الفتح النقي بقوله :

أين المراتب في الدنيا ورفعتها من الذى حاز علما ليس عندهم ؟
لا شك ، أن لنا قدرارأوه ، وما لدرهم عندنا قدر ، ولا لهم
هم الوحوش ، ونحن الإنس ، حكمتنا تقودنا حيث ما شئنا ، وهم نعم
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا عنهم ، فإنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان : من علم ومن عدم وفيهم المتعبان : الجهل والحشم

والقصيدة التى قالها ابن دقيق العيد فى إباء العلماء ، وتقرب من قصيدة الجرجاني ، هى :

يقولون لى : هلا نهضت إلى العلا فما لذَّ عيشُ الصابر المنقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها بمصر إلى ظل الجذاب المرفع
ففيها مر الأحيان من فيض كفه إذا شاء روى سيله كل بلقع
وفها قضاة ليس يخفى علمهم تعين كون العلم غير مضيع
وفها شيوخ الدين والفضل والآلى يشير إليهم بالعلا كل أصبع
وفها ، وفيها ، والمهانة ذلة فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت : نعم أسعى إذا شئت أن أرى ذللا مهانا مستخفا بموضعى
وأسمى إذا ما لذ لي طول موقفى على باب محبوب اللقاء بمنع
وأسمى إذا كان النفاق طريقي أروح وأغدو فى ثياب التصنع
وأسمى إذا لم يبق فى بقية أراعى بها حق التقى والتورع
فكم بين أرباب الصدور مجالس تشبُّ بها نار الغضا بين أضاعى
وكم بين أرباب العلوم واهلها إذا بحثوا فى المشكلات بمجمع
مناظرة تحمى النفوس فتلهى وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع

(١) العدم هنا معنى الفقر وقلة المال .

من السفه المزرى بمنصب أهله أو الصمت عن حق هناك مضيع
فإما توقي مسلك الدين والتقى وإما تلقى غصه المتجرع !

رحم الله أبا الحسن الجرجاني ، ورحم الله ابن دقيق العيد ، ورحم الله
تاج الدين السبكي حين يقول : « والكلام في العلماء ، وما ينبغي لهم يطول ،
ولكننا ننبه على مهمات ، فمن هؤلاء من يطلب العلو في الدنيا ، والتردد إلى
أبواب السلاطين والأمراء كما ذكرناه ، وحب المناصب والجاه ، فيؤدي ذلك
إلى أن يظلم قلبه بهذه الأكدار ، ويحول صفاءه بهذه الأمور التي تظلم القلوب ،
وتبعد عن علام الغيوب ، وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الازدياد من العلم ،
فكم رأينا فقيها تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه ، ونسى ما كان يعلمه ؛
وإلى فساد عقيدة الأمراء في العلماء ؛ فإنهم يستحقرون المتردد إليهم ؛
ولا يزالون يعظمون الفقيه ؛ حتى يسألهم في حوائجهم ؛ ويثول ذلك إلى أنهم
يظنون في أهل العلم السوء ؛ ولا يطيعونهم فيما يفتون به ؛ وينتقصون العلم
وأهله ، وذلك فساد عظيم ؛ وفيه هلاك العالم . »

اللهم ارزقنا الصواب والرشاد في العمل ، ووفقنا لما تحب وترضى ؟

بطولة شار

الرجل العظيم يهر الناس في حياته ، كما يهرهم بعد مماته ، أو قل : إنه يفيدهم في الحالتين ، فهو يهرهم ويفيدهم في حياته بعلمه وسعيه ونضاله ، كما يهرهم ويفيدهم بعد مماته بذكراه وسيرته وموحيات تاريخه ، وبعض هؤلاء الرجال العظماء الأبطال — وبخاصة في ميادين العقائد والمبادئ الروحية — لا يمل الناس من ترديد ذكراهم ، أو الحديث عنهم ، أو النظر في مراحل حياتهم ، إذ أن حياة هؤلاء ليست تاريخاً يسرد ، أو موضوعاً يشرح ، وإنما هي موحيات وحوافز ، ومثيرات ودوافع ، وعظات وعبر ، فالناس كلما رددوها اتعضوا منها ، واعتبروا بها .

« وجمال الدين الأفغانى ، أحد هؤلاء القلائل ، فنحن نكرر ذكره والحديث عنه ، فیزداد تاريخه تألقاً وتأثيراً ، ومن هنا لا نرى بأساً في أن يتكرر الحديث عن هذا أو ذاك من عظماء الإسلام أو أبطال العرب ، ما دام الحديث يأتي على وجه المنشود ، وفي مناسبتة الملائمة .



وأوجز وصف يقال عن جمال الدين : إنه « نأثر من أجل المسلمين » ، فهو سيد من سادات الإسلام ، شب فرأى ما أصاب المسلمين من غفلة وهوان ، فقام يشور من أجلهم ، ويعمل لإيقاظهم ، ويضحى بنفسه في سبيلهم .

ولا عجب فهو ربيب الإسلام ؛ وسليل « الحسين » سيد الشهداء ؛ وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بذل « الحسين » نفسه من قبل في سبيل الحق الذى آمن به ، وفي سبيل المسلمين الذين أيقن أنهم قد أصابهم من الحيف والعسف ما يستوجب خروجه لموطن البلاء والجهاد ، ولو أدى ذلك إلى الاستشهاد .

هو « نأثر من أجل المسلمين » .. لا من أجل شيء آخر .. لم يثر من أجل

المال والثروة ، فقد عاش جمال الدين فقيراً معدماً ، قليل المال محتاجاً إليه عافاً نفسه عنه .

ولقد تقدم إليه بعض الناس بمعونة مالية في لحظة من لحظات الضيق والشدّة ، وكأنه يريد أن يمن بها على جمال الدين ، فرفضها جمال الدين ، وقال قولته المأجدة الخالدة : « احفظوا المال ، فأنتم إليه أحوج ، وأما الليث ^(١) فإنه لا يعدم فريسته أينما ذهب ، ا .

ولم يثر جمال الدين من أجل الحصول على البيت الهادئ ، أو السكن الدائم ، فقد عاش مسافراً متنقلاً ، مهاجراً موصول الهجرة ، مفزّع النوم ، مشرّد الأحلام ، فهو يواصل التنقل بين أفغانستان ، وإيران ، والحجاز ، ومصر ، والهند ، وروسيا ، وفرنسة ، وإنجلترا ، وغيرها من بلاد الدنيا .

كانما هو في حلٍّ ومرتحلٍ موكلّ بفضاء الأرض يذرعه

ولم يثر جمال من أجل الأولاد - وهم زينة الحياة وبهجة الدنيا - فقد عاش بلا أولاد يشغلونه أو يغرونه بأن يسعى لهم ، أو يجمع من أجلهم ، أو يقصر جانباً أو جوانب من همته عليهم .

ولم يثر من أجل « الزوجة » ، إذ لم يتزوج جمال الدين ، ووطئ الدوافع الجنسية بقدومه ، ولقد حاول بعض من خافوه أن يشغلوه بالمرأة ، أو يغروه عن طريقها ، فلم يفلحوا ، إذ أبى جمال الدين واستعصم .

ولم يثر من أجل المنصب والوظيفة والجاه في هذه الحياة ، فلقد عاش مستحقاً بهذه المناصب والوظائف ، ولقد تولى في بعض الأحيان مناصباً شبيها بمنصب رئيس الوزراء فلم يحفل له ولم يغتر به ، ولم يتردد في تركه حين رآه كالقيد يحول بينه وبين الانطلاق مع مبادئه وآرائه ودعواته .

ولقد كان جمال الدين يتناصب بعض الملوكة والسلاطين العداء ، وكان يحمل

(١) الليث : اسم من أسماء الأسد

عليهم الحملات الشعواء ، وكانوا يخافون هذه الحملات ويهاون صاحبها ،
ويودون أن يصطنعوه بما يشاءون من تكريم وتقدير ورفع مكانة ، لقاء
أن يكف عنهم .

وكان جمال الدين يستطيع أن يبلغ ما يطمح إليه الرجل الطموح من جاه
ورفعة شأن ، ولكنه فضل أن يبقى نائراً من أجل المسلمين ، مجاهداً في سبيل
الإسلام على أن يكون رفيع المنصب مع هؤلاء .

نعم ثار جمال الدين من أجل المسلمين ، فألف جمعية « أم القرى »
في الحجاز عقب أدائه فريضة الحج واتصاله برجال الإسلام ، ليحقق بها فكرة
« الجامعة الإسلامية » في الوقت الذي كان المسلمون فيه « أيدي سبا » مشتين
في كل رجا من أرجاء الأرض .

ثم ألف « جمعية العروة الوثقى » في باريس ، وأصدر مجلتها مع تليذه
وصديقه الشيخ محمد عبده ، وذلك لتطبيق أحكام القرآن ، والعمل بشريعة
الله في الفرد والجماعة .

وقد جاء النص على ذلك في صدر القسم الذي يسميه كل منتسب إلى
هذه الجمعية ، حيث يقول : « أقسم بالله العالم بالجزئي والكلّي ، والجلي والخفي ،
القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجتاحت ، لاحكّم من
كتاب الله في أعمالي وأخلاق ، بلا تأويل ولا تضليل ، ولأجيب داعيه فيما
دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلييته في أمر ولا نهى ، ولأدعون لنصرتي ،
ولأقومن بها مادمت حيا ، لأفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا ، ١١ .

وثار من أجل المسلمين حين وقف في وجه الاحتلال الأجنبي لبلاد
الإسلام حينما ذهب ، وحين حرض المسلمين والمنكوبين بالاحتلال على الثورة
في وجوه الباغين الغاشمين .

وها هو ذا يصرخ في أبناء الهند المصابين بالاحتلال الإنجليزي فيقول :

« لو كنتم يا مثات الملايين من الهنود ذباباً لكان طينسكم يصبم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم (مستر غلادستون) وقرأ... ولو كنتم يا مثات الملايين من الهنود ، قد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخصتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القاع ، وعدتم إلى هندكم أحرارا ، !! »

ونار جمال الدين من أجل المسلمين حين حارب الاستبداد الداخلي في بلاد المسلمين الذي يتمثل في ظلم الحاكمين للحكوميين وفي بغى المستغلين للسادحين .
وها هو ذا يهتف بالفلاح المصرى قائلا : « أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض لنستنتب ما تمسك به الرمح ، ويقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » .

وهكذا نار جمال الدين الأفغانى من أجل الإسلام ، ومن أجل المسلمين ..
نار من أجلى ، ومن أجلك أنت ، ومن أجل كل مسلم . نار فى سبيل قرآنى
وقرآنك وقرآن كل مسلم .

فلا أقل من أن نذكر بكلمة الخير والإنصاف والتقدير ... هذا التأثير الذى أتعب نفسه وأنصب حياته فى سبيل أن يعود بمجد الإسلام ، وأن تعز دولة القرآن ، وأن ينهض المسلمون فى كل مكان ! .

نعم من حقه أن نذكره ، وأن نقدره ، وأن نشكره ، وأن نستخلص من حياته لأنفسنا عبرا وعظات .

لقد حق للشاعر الأستاذ محمد بدر الدين أن يصوغ فى بطولة جمال الدين هذه الآيات يناجيه بها منذ سننات وسننات :

يا شريداً والمجد يسعى وراءه وفى يعشق الخلود إباءه
يا عصيالم يعرف الضيم يوماً لا ، ولم يرض رأسه بانحناءه

وشهابا يفرع الليل ، حتى
 نائراً يلهب الزمان .. ويضئ
 روحه ثروة تفيض طموحا
 أي نفس حملتها - يا جمالا -
 لا الأعاصير نهبت من قواها
 إنها منحة السماء إلى الأبرار
 كل قرن يهبها الله نورا
 يا غريب الرغبات .. من سنن الكو
 أخرج «المصطفى» وحورب في الل
 ورأينا «الفاروق» يقتله البغ
 «وعلى» يبكونه اليوم .. لكن
 «وحسين» الشهيد .. كم خذلوه
 لا يعيب الكمي جند خفاف
 فاغتراب الأحرار في لجج الشك
 والطواغيت كلهم لا يطيقو
 إنما عاشق الخلود شهيد
 كبرياء لا يعرف العجب فيها
 كبرياء الحق تزخر بالنب
 يا جمالا محمدى السجايا ..
 شردته البلاد بالأمس ، لكن
 كل قطر وطنته يدعى اليو
 هذه مصر تحتفى الآن ، هلا
 يوم باتت والرعب يعصف فيها
 وطغاة الزمان باتوا حياري
 فلمكم حاولوا شراءك بالما
 ثم ضاقوا فأخرجوك وحيدا

بات جيش الظلام يخشى لقاءه
 كلما طاف في مكان أضائه
 لم يكف فكيف زمانه غلواه
 تنفث البعث حرة وضائه ؟
 لا ، ولا البغي كف عنها بلاه
 ض ، يشد الإسلام منها بناءه
 من جلال النبي يهدى سناؤه
 ن اغتراب لقيته ، وإسائه
 به ، وهذى أنواره لألامه
 سى ، وهذا الخلود أمسى رداه
 هل أطاعوا لدى اللقاء نداه ؟
 ثم عادوا يسولولون وراءه !
 كلما كره ساعدوا أعداءه
 حديث لم نلق بعد انتهاه
 ن أيا يرون فيه الكفاهه
 أبد الدهر يمتلى كبرياهه
 جنبات ولا تطيق لقاءه
 ل ، وتهدى لكل حق سماه
 وإماما أقام فينا لواه
 ها هي اليوم تستعيد بلاه
 م انتساباً .. وكم أراك عداه
 قازنت حالها بيوم الإسائه !
 كل قيل .. فلم يطاوع حيائه
 من فؤاد لم يستطيعوا شراهه
 ل ، وساقوا لك النساء دناءه
 راهب الروح ما يبالي فناءه

أنصت الخلد والسفينة تسعى
 إذ ترُدُّ الأموال والموج داج
 وتقول: اذهبوا.. فليست أبالي
 كم زعيما من قبل أو بعد عاني
 يقتل الشرق كل هاد، ويبكى
 ويقيم الأحفال تهتف للرا
 بعد مامات أبنوه، وكانوا
 هجروا الضوء بالنهار، وجاءوا
 يجذبون الشعاع من أفق الغر
 يا لقوى، وهم حيارى، أفيقوا
 سيعود النهار من أفق الشر
 أم تراكم تنسونه فإذا ما
 امنحوا الحى قدره فى وفاءه
 فلسان التاريخ أروع راث
 بطريد أبى الطغاة بقاءه
 لست تدري إن سرت ماذا وراءه
 أبدا يقنص الهزبر^(١) غداه
 من أذاهم، وكم أباحوا دماهم
 بعد حين، ولا يمل بكاه
 حل تنعى كفاحه وإياه
 وهو حى يصادرون غداه
 ليعيدوا لدى الغروب رواءه
 ب عسائم يبدلون مساءه
 إنه الأمس لا يعير رداه
 ق فكونوا عماده وبناءه
 غاب جثم تسابقون وراءه
 فإذا مات لا تبالوا رثاه
 والشعاع القوى يأبى انطفاءه !

رحم الله جمال الدين الأفعانى ثائر الإسلام الذى أيقظ أمة الإسلام
 بعد جمود وهمود، والذى كان له أكبر الاثر فى جهاد الرواد الذين مهدوا
 طريق الإصلاح فى مجال الدين والدنيا.

(١) الهزبر : اسم من أسماء الأسد

بطولة اهتداء

يقول رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » . وكان هذا الحديث النبوي الكريم يشير من بعد إلى أن الرجل العظيم له مفتاح يحدد اتجاه شخصيته المتميزة ، وقد يدور هذا المفتاح يساراً ، فينحرف بصاحبه وشخصيته ، فيكون حينئذ قوة ملحوظة في ميدان الاعتساف ، ويظل هكذا حتى تهيم الأقدار لهذا المفتاح أن يعود فيدور يمينا ، فإذا هو ينقل صاحبه من مجاله المنحرف الأول إلى مجال مناقض له ومضاد ، وإذا هذا الرجل يصبح قوة في باب الخير لها ميدانها ولها سلطانها .

وإن تحول الإنسان من اتجاه في حياته إلى اتجاه آخر يحتاج إلى فكر وعزم وقوة ، وإذا كان هذا الاتجاه مادياً عملياً استطاع تحويله كثير من الناس ، ولكن التحول من اتجاه في الاعتقاد الديني إلى اتجاه آخر ، يحتاج إلى عنف في المجهود أو بطولة في الشخصية .

* * *

هنا نحن أولاء نرى عمر بن الخطاب يخرج قبيل إسلامه متوشحاً سيفه ، يريد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه ، فيلقاه نعيم بن عبد الله فيسأله عن وجهته ، فيقول له عمر وهو ما زال في عمية الجاهلية لما يمتد إلى الإسلام بعد :

« أريد محمداً .. هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها .. فأقتله » .

فأجابه نعيم : أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟

فغضب عمر وقال : أى أهل بيتي ؟ .

قال نعيم : أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما ! .

فرجع عمر يغلى الدم فى عروقه ، فطرق الباب على أخته فى دارها ، وكان عندها زوجها ، ومعها خباب بن الارت يعلمهما القرآن الكريم من صحيفة ، ولما عرفت فاطمة أن الطارق هو أخوها عمر ، خبأت الصحيفة تحت ثغرها ، واختبأ خباب فراراً من بطش عمر به .

ودخل عمر وقد سمع صوت خباب فقال : ما هذه الهينة التى سمعت ؟ .
أجاب سعيد : ما سمعت شيئاً .

قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ! .

ودفع الغضب عمر ليطش بسعيد زوج أخته وابن عمه ، فنهضت فاطمة لترد عن زوجها وعن أخيها فى الإسلام ، فضربها عمر وسال الدم منها ...
وكان جريان هذا الدم قد بعث الثورة فى نفس فاطمة ، فتمالت لعمر فى عزم وصرامة : نعم قد أسلنا . وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! .

ولكن الدم الذى جعل من ضعف فاطمة قوة أحال فى الوقت نفسه قوة عمر إلى ضعف ، فإنه لإنسان ، وإن المضروبة أخته وشقيقته ، وإن للون الدم روعته وأخذته ، وإن فى طوايا عمر من خصال الرجولية القوية ما طمرته رمال الجاهلية ، وغطته حميتها مع الأيام ، ولكن المعدن ما زال كريماً على أصله تحت الرغام .

فما كاد عمر يرى الدم ، ويقرع سمعه كلام أخته الصريح الحازم العازم حتى تنبه من غفلته ، واعتدل من جورده ، واهتز كيانه بعد طول جمود ، فرق فى خطابه لأخته ، وسألها أن تطاعه على الصحيفة ، وأحست فاطمة بغريزة المرأة أن أخاها قد أدركته لفحة من ندم ، ونفحة من ارعواء ، ونسمة من يقظة ، فسأله أن يتطهر أولاً ، حتى يصلح لتناول قرآن لا يمسه إلا المطهرون ، فاستجاب عمر لذلك : وتناول منها الصحيفة ، وأخذ يقرأ فيها هذه الآيات الكريكات :

« طه ، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكِّرَةً لِّمَن يَخْشَى ، تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِن تَبْجَهَزْ بِالنُّقُولِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُ السِّرِّ وَأَخْفَى ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . »

وبلغ هذا الكلام الإلهي الحكيم الرائع الأخاذ مواقع التأثير ومواطن القلقلة من نفس عمر وأعماقه ، فإذا لسانه يقول وكأنه قد تبدل إنساناً جديداً آخر : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! .

وسمع خباب العبارة العمرية من وراء ستار ، فأشرق لها الأمل في نفسه ، ورجا أن يسلم عمر ويهتدى ، فبرز إليه من مخبئه يقول له : « يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فاني سمعته يقول في دعائه :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين : الحكم بن هشام ، أو عمر بن الخطاب ، فإنه الله يا عمر ! » .

وكان عمر رجلاً ، وكان بطلاً ، وكان معدنه أصيلاً ، وتربته قوية ، فاستطاع أن يدير مفتاح شخصيته ، وأن يحول طاقاته من مجال الاعتداء إلى مجال الاهتمام ، وأن يتألق في دنيا الإيمان بعد ما أسرف في دنيا الكفران ، فسارع بالاستجابة لتحريض خباب له على الخير والاهتمام ، فقال له : دلني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم فدلته على مكانه ! .

وخرج عمر متوشحاً سيفه ، وسار حتى طرق باب بيت عند الصفا ، فيه الرسول عاينه الصلاة والسلام ، ومعه نفر من أصحابه ، فذهب أحدهم يستطلع من الطارق ، وعاد إلى الرسول مسرعاً خائفاً يقول : إنه عمر متوشحاً سيفه .

فقال سيد الشهداء ، أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب : تأذن له يا رسول الله : فإن كان يريد خيراً بذلنا له خيراً ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

وأذن الرسول لعمر ففتحوا له الباب ، ونهض إليه الرسول أول من نهض

فثقلناه ، وأخذ النبي بمجمع رداء عمر ، وهزه هزة عنيفة ، كأنما كانت تغربل ما بقي في نفس عمر من رواسب الجاهلية ، وفضلات الماضي المظلم . وبقايا الكفر والضلال ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر : ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! .

وزلزلت نفس عمر زلزالها بسبب هذه الهزة ، وبأثر هذه القولة ، فإذا صوته ينبعث بين الجمع يقول : يا رسول الله ، إنما جئت لأومن بالله ورسوله ، وبما جاءك من عند الله ! .

وهكذا أسلم عمر ، وسرت الفرحة بين الجميع بإسلامه ، وعلا صوت التكبير يعلن اهتداء عملاق إلى صراط ربه ! .

ونجد إحدى الروايات تقول : إن عمر كان في جاهليته مباعدا للإسلام ، وكان صاحب خمر يحبها ويشربها ، وذات ليلة خرج يريد الخمار ليشرب فيسكر ، فر في طريقه على الكعبة ، فوجد رسول الله يصلى ويتلو القرآن ، فاستمع إليه . يقول عمر : « فلما سمعت القرآن رق له قلبي . فبكيت ، ودخلني الإسلام » .

وربما كانت حادثة مروره على الكعبة قبيل الرواية الأولى ، فكان سماعه للنبي عند الكعبة يصلى ويتلو كتاب الله خير تمهيد لموقف إسلامه الذي شهدناه من قبل ، ومهما يكن من أمر فقد استطاع عمر بقوته النفسية وامتلاكه لخاصية شخصيته ، أن يدير مفتاح هذه الشخصية من حيرة وضلال ، إلى رشد واهتداء .

* * *

ومضى قليل من الزمن على عمر ، ثم أقبل على الرسول يقول :

يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ .

فقال له النبي : بلى ، والذي نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ! .

قال عمر : فقيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ! .

وتلبث الرسول قليلا ، ثم استجاب لرغبة عمر ، فخرج في صفين ، أحدهما

فيه عمر ، والآخر فيه حمزة ، وبلغوا الكعبة في موكب له غباره ، دون أن يجرؤ أحد من قريش على اعتراض الجمع أو النيل منه .

ويومئذ كرم الرسول صلى الله عليه وسلم بطولة عمر وموقفه ، فسماه : « الفاروق » ، أى الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وبين الظهور والخفاء .

وتذكر عمر عقيب إسلامه أنه كان قد اعتدى بالضرب على بعض المسلمين المستضعفين ، لأنهم كانوا قد أسلموا وهو لم يلم بعد ، فأراد عمر عقب إسلامه أن يطبق شرعة العدل والقصاص على نفسه ، بأن يعرضها لما تعرض له هؤلاء من قبل ، فتوجه إلى رجل معروف بحرصه على إذاعة الجديد من الأنباء ، وأخبره عمر أنه قد أسلم . فسار الرجل بين الجموع متنقلاً يعلن إسلام عمر .

وتعرض عمر بسبب ذلك لإيذاء قومه ، فأخذوا يعتدون عليه ، وأخذ يدافع عن نفسه ، وهو يحس كأن اعتداءهم عليه تطهير له بما قد ارتكبه بالأمس من عدوان على المسلمين ! .

* * *

رضوان الله على عمر العربى الذى تأثر ببلاغة القرآن المبين المعجز . والذى تحركت في نفسه الرحمة بسبب ما رأى من أثر قسوته على أحته ، والذى يكن فيه عنصر العدل والإنصاف . وإن طغت على عقله وإصافه تقاليد الجاهلية والإبقاء على مواريث الأسلاف حيناً من الزمان ! .

رضوان الله على العملاق الذى أعطى درساً فى بطولة الاهداء .

بطولة عداله

إن الناظر في صفحات التاريخ تلوح لعينه خلالها قِمَمُ شوامخُ ، يعلوها مصاحون عمالقة ، وقَفُوا المواقف الخالدة للعدالة والإنصاف . ومن العجيب أنه توجد بعضُ المشابهة بين هؤلاء العمالقة ، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان والبيئة .

فيروى التاريخ مثلاً أن كسرى أنوشروان حينما كَمَّ ببناء إيوانه ، أراد عماله أن يُدخلوا فيه قطعةَ أرضٍ مَغْتَصَبَةٍ من أصحابها ، وذلك ليكون الإيوان مربعا ، وبدون هذه القطعة لا يكون ذلك ، ولما علم كسرى بذلك أبى ، وقال : لأن يقال إن إيوانى معوجٌ خير من أن يقال إن كسرى قد ظَلَمَ ! .

وتمر الأيام ، وتختلف الأشخاص ، ويتبدل المكان ، وتشاء الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه في عهد إمام العادلين من الحاكِمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقد شرع واليه على مصر عمرو بن العاص ، في إقامة مسجده المعروف باسمه في مدينة الفسطاط (مصر القديمة) . وكانت لإحدى السيدات القبطيات دار بجوار مكان المسجد ، فأخذها عمرو ؛ وأدخلها في بناء المسجد لإكمالهِ ، ولكن المرأة لم توافق ، وذهبت إلى أمير المؤمنين عمر شاكيةً ، فكتب عمر إلى واليه عمرو يقول : « نحن أولى بالعدل من كسرى يا عمرو . » ولما بلغ الكتابُ سارع عمرو بهدم المسجد ، وأعاد الأرض إلى صاحبتهَا ، وبني المسجد من جديد ! .

وتمر الأيام ، وتختلف الأشخاص ، ويتبدل المكان ، ونرى « فردريك » ملك « بروسيا » يريد أن يقيم في ضاحية « بوتسدام » بجوار « برلين » مقبرة الملوك ألمانيا ، وكان في المكان المختار لبناء المقبرة طاحونة هوائية لطحان فقير ، فأراد فردريك أن يأخذ مكانَ الطاحونة ليدخله في المقبرة ، فرفض الطحان ذلك ، فهدده فردريك بأنه سينزع المكانَ بالقوة ، وأرسل فردريك

من يخبر الطحان بذلك ، فقال الطحان للرسول : « إن فردريك لا يستطيع ذلك ، لأن برلين فيها قضاة وقانون » ! .

فسرَّ فردريك من إجابة الطحان ، وكافأه ، وأبقى العلاحونة — ولا تزال — إشارة ورمزاً إلى احترام العدل والإنصاف .

* * *

ويروى التاريخ كذلك أن مسلمة بن سعيد مات وعليه للخليفة المنصور دين ، وعليه لبعض الناس غير الخليفة ديون ، فكتب المنصور إلى عامله يقول : « استوف لأمر المؤمنين دينه ، وفرِّق ما بقي بين الغرماء » .

فلم يلتفت العامل إلى كتابه ، وضرب للخليفة بسهم من المال ، شأنه شأن كلِّ دائن ، من غير تمييز ، فلما علم المنصور بما فعل عامله كتب إليه : « ملئت الأرض بك عدلاً ، وارتفع بفعلك هذا من الظلم كثير » .

ومما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى إلىَّ : يا أخا المرسلين ، يا أخا المنذرين ، أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلة ، فإنى ألعنه ما دام قائماً يصلى بين يدي ، حتى يرد تلك الظلالة إلى أهلها ، فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى ، ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة » . وأنه قال : « ما من عبد ظلم فشيخص ببصره إلى السماء ، إلا قال الله عز وجل : لبيك عبدى حقاً ، لأنصرك ولو بعد حين » ! .

ليت الذين يلون أمورَ الناس صغارها وكبارها يذكرون هذه الخطرات وهم يتصرفون فى شئون العباد ، فيحرصوا على التشبه بأولئك العالقة الخالدين ، الذين نقشوا على صدر الإنسانية دروسَ العدالة الحقِّ ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة من الاقتداء ، فلا أقل من الخوف والارعواء ، أمام هذا الوعيد الشديد من رب الأرض والسماء ! .

بطولة مرحمة

تطوف بنا في رمضان من كل عام ذكرى يوم من أيام الإسلام ، مشرق الصفحات ، باهر اللوحات ، عميق العظات ، وهو يوم الفتح المبين : فتح مكة الذي كان في طليعة أحداث الثلث الأخير من رمضان في السنة الثامنة للهجرة ، وهو اليوم المجيد الذي شاء الله أن يضع فيه حداً للضلال والبهتان ، وأن يمكن فيه لدعوة اليقين والإيمان ، وأن يتم على كلبة الحق فتحاً مبيناً بلا قتال .

فهذا رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — يوقع قبيل الفتح صلح « الحديبية » مع قريش ، بالرغم مما فيه من شروط قاسية على المؤمنين ، ولكن النبي يقبلها لأمر يريد الله أن يبلغه : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » . ولأنه يريد توطيد السلام ، ونشر الإسلام .

وأخذت قريش لنفسها في هذا الصلح ما أحببت من الشروط والاحتياطات ، ومع ذلك نقضت العهد ، وخانت الميثاق ، واعتدت على حلفاء المسلمين ، وقتلت منهم عشرين على حين غفلة ، شأن الذين لا عهد لهم ، ولا هادى يهديهم من شرف أو وفاء .

وأحسست قريش بسوء ما فعلت ، وقدرت تبعات ما اقترفت ، وحاولت أن تخادع المسلمين والله خادعها وقامعها ؛ فجاء أبو سفيان إلى المدينة عقيب ذلك العدوان — وقد كان زعيماً لقريش يومئذ — جاء محاولاً لقاء الرسول ، ظاناً أنه لم يعلم بالعدوان ، كي يؤكد العهد ، أو يجدده ويزيد في مدته ، رهيات ١ .

وكانت بنته « أم حبيبة » زوجة للرسول ، فأراد أبو سفيان أن يستغل هذه الرابطة ، فدخل على ابنته يريد أن ينتفع بها في خداعه ومسعاه ، وخاب

فأله ، فلقد أراد أن يجلس على فراش النبي ، وهو لم يتطهر بالإسلام بعد ،
 فطوت أم حبيبة الفراش عنه ، فعجب منها ، وقال لها : يا بنية ، ما أدري :
 أرغبت بي عن هذا الفراش (أى تكريماً لى عنه) أم رغبت به عني (أى ارتفعت
 به على) ؟ : فأجابته إجابة المؤمنة التى تنسى فى سبيل ربها ونبيها وعقيدتها كل
 صلة ، وكل قرابة ، قالت : « بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ، !
 فدهش أبو سفيان لهذه المفاجأة ، وقال : والله لقد أصابك بعدى شرٌ
 يا ابنتي ! . وحاول أبو سفيان أن يحقق شيئاً مما جاء له ، فلم يفز بطائل ، وعاد
 إلى مكة بخفي حنين ! .

وانتهز الرسول الفرصة ليضرب ضربته الصالحة المصلحة ، التى يزهق بها
 روح الفساد ، ويثبت بها دعائم الحق ، فجمع الجوع فى سرعة ، وسار فى عشرة
 آلاف أو اثني عشر ألفاً ، يريد فتح مكة سرّاً وفجأة ، ولم يتخلف عنه أحد
 من المهاجرين أو الأنصار ، وكان يريد بهذه الكثرة أن يجعل المشركين أمام
 الأمر الواقع ، فلا يطيقوا مقاومة هذا الجيش الضخم ، فيسلموا ، ولا يكون
 هناك نزال أو قتال ، ولذلك أخفى الرسول مقصده ، وأمر قرمه بالسرعة
 والجد .

وكان يدعو ربه قائلاً : « اللهم خذ العيون والأبصار عن قريش ، حتى
 نبغتها فى ديارها . اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بقتة ،
 ولا يسمعون بنا إلا فجأة » . وتلك طريقة الحرب الخاطفة ، سبق إليها النبي منذ
 مئات ومئات من السنين ، ولكنه لم يستخدمها كما يصنع طواغيت الجروب
 وجباة المعارك للتدمير أو الاستعباد ، بل للدفاع عن الإسلام ونشره وتحطيم
 الأغلال والأصفاد .

وسعى ركب الرسول الحاشد ، وخرج أبو سفيان القوى العملاق

يتحسس ويستطلع ، وفي ذهنه ما فيه من دهشة لتخاذل الكفر يوماً بعد يوم ،
وسطوع الإيمان حيناً بعد حين .

وما هي إلا لحظات حتى يلتقي بالرسول ويسلم ، ويخضع للحق .. وما زال
الركب على الطريق ، ويأمر النبي عمه العباس أن يقف بأبي سفيان عند مضيق
الوادي « حتى تمر به جنود الله فيراها ، !

ولما رأى أبو سفيان ما رأى من الجنود والحشود عجب وقال للعباس :
« والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . فصحح له العباس
فكرته قائلاً : « ويحك يا أبا سفيان ، إنه ليس ملكاً ، إنها النبوة ، ! . فيذعن
أبو سفيان ويقول : فنعم إذن ، !

وبعد أن خرج أبو سفيان من مكة منذ قليل زعيماً للشركيين ، عاد إليها
يتقدم الركب وهو أحد المسلمين ، يخذل أهل مكة ، ويوئسهم من فائدة القتال ،
ويدعو إلى التسليم .

وجعل ينادي فيهم يا كرام الرسول له ، الذي جمع فيه بين إرضاء نفثه ،
وتحقيق ما يريده من سلام ، وهو قوله : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ،
ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، . . .

ويا له من صنع إلهي أن ينقلب المحرّض القوي ضدّ الإسلام ، داعياً
قوياً يمهّد الطريق للإسلام والسلام ، والله يؤيد دينه بمن يشاء ، وسبحان
مقلب القلوب ، ومن يأخذ بنواصي العباد إلى ما أراد . !

وقسم الرسول جيشه الضخم ، وأمر كلّ قسم بأن يدخل مكة من جهة ،
لتمّ المفاجأة أو المباغتة ، فلا يجد الناس أمامهم إلا التسليم بلا صدام ، ونهى
النبي أن يقاتل أحداً أو يريق دمّاً إلا مضطراً ، وحدث أن استبدت الحماسة
بأحد المسلمين ، وكأنه لم يعلم خطة الرسول السلبية ، وكان يحمل راية من

رايات المسلمين ، فقال : « اليوم يوم الماحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم
أذل الله قريشا ، ا .

فغضب الرسول من ذلك ، ونزع الراية منه ، وأعطاه غيره ، وقال :
« اليوم يوم المرحمة ، اليوم تصان الحرمة ، اليوم أعز الله قريشا ، ا .
ويا له من قول نبي كريم ، ورسول عظيم ، تعالى على الاحقاد والاضغان ،
وسما بمكانة الإنسان إلى ذروة الرحمة والحنان .

ومضى الركب الهائل في طريقه ، والرسولُ يخفض رأسه على راحلته
تواضعا ، وخشيةً من ربه ، وخضوعاً لجلاله ، حتى يمس شاربه ظهر الدابة .
وعاد المهاجرون إلى بلادهم ، ورجع الغريبُ إلى داره .

ودخل محمد مكة التي أخرجه وآذته ، دخلها بعد غيابه عنها ثمانى سنوات ،
ورأى مشاهدَ الوطن الحبيب ، ورأى المسالك والدروب التي سار فيها طفلاً
وفى وشاباً ورجلاً رسولاً ، وتطلع إلى الشعاب والجبال ، حيث أودى
وطورد وعذَّب ، وتطلع إلى غار حراء حيث تعبد وتحنن وتلقى الوحي ،
وتطلع إلى الكعبة الحرام التي حيل بينه وبينها زمناً طويلاً ، فترقق الدمع
في عينيه ، من جلال الذكرى وروعة اللقاء .

* * *

وطاف محمد ومن معه بالبيت العتيق ، وسارع بالتطهير الكامل ، فخطم
الأصنام المحيطة بالكعبة ، وهو يقول :

« جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »

وأمر بلالا داعي السماء أن يؤذن ، فانطلق الأذانُ بكلمة التوحيد ،
ودعوة الصلاة ، وهتاف الفلاح ، في رحاب البلد الحرام ، ومن حمى
الكعبة الحرام .

وفتح الرسول بيت ربه سبحانه ، وطهره مما فيه من بقايا الجاهلية ، مردداً قوله : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . !

وجاء موقف الجلال الرائع والنبيل العظيم ، حين تعلقت عيون المسكين الخائفين بشفتي محمد الذي قال لهم : ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ .

فقالوا في إجلال ورجاء : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال الرسول السمح ، والنبي الفاتح ، والزعيم المتمكن ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . . !

وكأنما قد انتشروا من القبور حين سمعوا ما سمعوا ؛ فقد كانوا ينتظرون الجزاء العادل نقيلاً وتشريداً ، فجاءهم عفواً كريماً وصفحاً حميداً ، فأمنوا أن محمداً هو رحمة الله المهداة ، وأنه رسول هذه الحياة ، فدخلوا في دين الله أفواجا ، وتحقق « نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ » .

بطولة قدوة

ما أحوجننا ونحن نعيش في عالم مائر حائر ، تتجاذب أبناءه الشهوات والأهواء ، إلى أن نفتتح آذاننا جيداً لصوت الأسوة الحسنة والقدوة الكريمة يأتينا من جوف الماضي المزهو الباهر ، حيث تتألق صفحات تاريخنا الإسلامي بالمواقف الغرّ والحوادث الزهري التي ازدانت بها حيوات الأئمة الأبطال من سلفنا الصالح ، وأجدادنا الميامين .

وما أجددنا بأن نعتبر حين نسمع ، وأن نستجيب حين نعتبر :
« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ،
وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ^(١) » .

وما أحوجننا في بعض الأحيان ، إلى أن نحبس أقلامنا عن جريانها بما تحسنه أو ما لا تحسنه ، من تشقيق الكلام ، وتزيين الأسلوب ، وتوليد المعاني ، وأن نترك لغة الأجداد بمنطقها الواقعي الرائع وهداياها التطبيقية الباهرة . تأخذ سبيلها إلى الأسماع والمشاعر ، فتثير ما تثير من كريم العاطفة ونبل الوجدان .

ولله المثل الأعلى في هذا الباب ، فهو الذي أنبأنا أن قصص أنبيائه ومواقف رسله ، فيها القدوة الأولى ، والمثل الرفيع للإنسان : « أَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ دِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَئِنْ تَصْدَقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَنَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٢) » .

وهذا دافع خفي يأخذ بيدي لتعرض أمام الأبصار والبصائر هذه البهجات من حياة الفقيه العظيم ، ناصر القرآن ، وجندى الإيمان ، والهازي بالطغيان

(١) سورة الزمر ، الآية ١٨ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

والبهتان ، والمناضل عن السنة ، والصابر في المحنة ، الإمام الجليل وأحمد بن محمد
ابن حنبل ، عليه سمائب الرحمة والرضوان

ولد ابن حنبل رضى الله عنه ببغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ^(١) بعد أن
قدّمت أمه وهى حامل به من «مرو» ، وهو عربى أصيل من قبيلة شيبان بن ذهل
ومات أبوه وهو ابن ثلاث سنين ، ولما بلغ مبلغ الشباب تمتحت عيناه على
أنوار الهدى والتقى في مدينة السلام بغداد ، فأحب بطبيعته النقية وغريزته السليمة
أن يقبس ما استطاع من تلك الأضواء ، لحفظ القرآن والحديث وعلوم اللغة .

ثم سعى إلى أستاذه « الشافعى » فجلس بين يديه سنتين كاملتين ، تلقى فيهما
عنه الفقه وعلم الأصول ، وحينئذ بدا من ابن حنبل ما بهر وأسر ، وما أطلق
السنة العلماء عليه بالمدح والثناء ، حتى قال عنه الشافعى : « خرجت من بغداد
وما خلعت بها أحداً أتقى ولا أروع ولا أفقه من أحمد بن حنبل » .

وقال عنه أبو عمر بن النحاس : « فى الدين ما كان أبصره ! وعن الدنيا
ما كان أصبره ! وفى الزهد ما كان أخيره ! وبالصالحين ما كان ألحقه ! وبالماضين
ما كان أشبهه ! عرضت عليه الدنيا فأبأها ، والبدع فنفاها » .

وكان رضى الله عنه مشغوراً بطلب العلم ، يرى أنه من الواجب على الفقيه
أن يطلبه من المهد إلى اللحد ، إذ لا غاية للعلم ، ولا ساحل لببحاره ؛ ولذلك
كان دائم المطالعة والاستذكار ، لا يرى إلا قارئاً أو كاتباً أو سامعاً ، ولقد
رآه أحد أصحابه وهو يحمل محبرة بعد أن بلغ من التفقه والدراية ما بلغ ، فعاتبه
على حمله للدواة ، وقال له : يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت
إمام المسلمين ! . .

فأجابه ابن حنبل قائلاً : « مع المحبرة إلى المقبرة » . . . أى أنى سأظل
أتعلم إلى أن أموت ! .

(١) يوافق (نوفمبر سنة ٧٨٠ م) .

ولقد شغله العلم والفقه عن التمتع بطيبات الدنيا وحلاها المباح ، وما استطاع
أن يتزوج إلا وقد بلغ أربعين سنة ! .

وفي سبيل هذا العلم المحبوب طاف ابن حنبل بأكثر الديار الإسلامية ،
لا هواً ولا لعباً ، ولا طالباً للراحة أو الاستشفاء أو الاصطياف ، بل للقاء
الكبار من العلماء والأخذ عنهم .

فرحل إلى الكوفة ، والبصرة ، والمدينة ، ومكة ، واليمن ، والشام ،
والجزيرة ، كلها في طلب العلم ، وكتب عن علماء كل بلد ، وقد أفادته هذه
الرحلات العلمية كل الإفادة ، فأحاط بأصول الدين ، وصحيح الحديث ، حتى
ألف كتابه العظيم « المسند » .

ووضع قواعد ذلك المذهب الفقهي الحنبلي ، الذي امتاز بتمسكه بالدين ،
ومحاربته للبدع والمنكرات ، وأخذه للمسلمين بما يقتضيه التدين المتين ، من
الإقبال على الله عز وجل ، والأخذ في عبادة بعزيمة واجتهاد ! .

وكان رضى الله عنه في أثناء تعليمه مثال الطالب المؤدّب ، الذى يحترم
أساتذته ويحل شيوخته ، ويعرف أنه أسير لهم ، ماداموا قد حرروه من أغلال
الجهالة ، وزودوه ب زاد المعرفة .

ولقد أقبل ابن حنبل ذات يوم على مجلس أستاذه ، « وكيع بن الجراح »
والناس حوله كثير ، فجلس فى خشوع وأدب ، لا يتكلم ولا يتحرك ؛ فقال له
أحد الجالسين : يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يكرمك ، فمالك لا تتكلم ؟ . فقال :
إن يكن يكرمنى فينبغى أن أجله ! .

ولم يكن رضى الله عنه يكثر من الصمت ضعفاً أو خوفاً ، ولكنه الحياء
والآداب ، وجلال العلم ووقار التقى ، والاهتداء بهدى الله الذى ينهى عن
الاشتغال بما لا يفيد ، أو الدخول فيما لا يعنى ، فإذا ماجد الجد ، وحانت ساعة
الفصل ، رأيت الإمام كالبحر الزاخر يفيض بالآيات .

قال أبو داود السجستاني : لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد ابن حنبل ، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس ، فإذا ذكر العلم تكلم ! .

وكان ابن حنبل صادق التقوى شديد الخوف من ربه ، لا يغتر بمديح الناس له ، ولا ياقبالهم عليه ، وقد حدث أن كثر الذين يمدحونه ، ويشيدون بذكره ، ويرجون له من ربه العزة في الدنيا والآخرة ، فقال له بعض أصحابه : ما أكره الداعين لك ! .

فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجاً ؛ أسأل الله أن يجعلني خيراً مما يظنون ، وأن يغفر لي ما لا يعلمون ! .

ومن الواضح الجلي في حياة هذا الإمام الجليل أنه ما كان يريد علواً في الأرض ، ولا انتشاراً للصيت ، فكان لا يحب النظاهر بالصلاح ، أو الشهرة بأنه ولي مقرب من الله مستجاب الدعوة ! .

فقد روى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال له : إن أمي مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتني إليك لتدعو لها .

فغضب الإمام من ذلك وقال : نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها ! .

وكأنه أراد بعد ذلك ألا يرد الرجل فيحزن أو ينجل ، فدعا الله عز وجل بنفس كسيرة وقلب ضعيف أن يكشف البلاء عنها ، فرجع الرجل إلى أمه ، فصدق عليها الباب ، فخرجت إليه تسعى على رجلها ، وقالت : قد وهب الله لي العافية ! .

وظنى أن الله لم يستجب دعاء أحمد إلا لأنه اعتقد في نفسه الضعف والذلة أمام الجبار ، وسأله سؤال الخاشع الخاضع ، فاستجاب الله دعاءه ؛ لأن الله نصير المؤمنين الضعفاء ، الذين لا يفتخرون ولا يتغترون ، ولا يظهرون في الأرض الفساد ! . .

فإذا ما انتقلنا إلى بيت ابن حنبل وأسرتة ، وجدناه مثال الزوج الكريم ، والوالد الرحيم ، الذي يقيم دعائم بيته على أسس المحبة والتفاهم ، والمودة واللين ، فقد كانت له زوجة اسمها «عباسة بنت الفضل» ، وكان يحبها رُبُّنِيَّ عليها ؛ إذ كانت عليمةً فقيهة ، تروى الحديث وتحفظه ، ورزقه الله منها ابنه «صالح» ، وماتت في حياته فتزوج غيرها .

وقد قال عنها ابن حنبل : أُنِمت معي أم صالح ثلاثين سنة ، فما اختلفت أنا وهي في كلمة . . . فيا للجلال والروعة ! . . . ثلاثون سنة طويلة عريضة ، بشهورها وأسابيعها وأيامها وساعاتها ، ومراقفها وسرَّائها وضرائها وألوانها وحوادثها ، تنقضي على هذين الزوجين الكريمين دون أن يختلف أحدهما مع الآخر بكلمة ! .

فماذا نقول عن بعض بيوت اليوم ، وكلها الضجيجُ والعجيجُ ، والاختلافُ والشجار ، والمآبى والمخازى ؟ ! . حقيقة لقد ذهب الصالحون ! .

* * *

وكان أحمد بن حنبل — إذا دُعا ربه — بليغاً مؤثراً ، يكاد تتصل روحه بالملأ الأعلى ، فتحدث بلغة السماء ! ولقد قال أحد معاصريه وهو «ابن يعقوب الصفار» : كنا مع أحمد بن حنبل «بسر من رأى» . فقلنا : ادع الله لنا .

فقال : «اللهم إني أعلم أنك على أكثر مما نحب ، فاجعلنا على ما تحب دائماً» . ثم سمكت ، فقلنا : زدنا . فقال : «اللهم إنا نسألك بالقدرة التي قلت للسموات والأرض : «إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» ، اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك . اللهم لا تكثر لنا فنطغي ، ولا تُقلِّ علينا فننسى . وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا في ديانا ، وغنى من فضلك ، ! .

وكان كثيراً ما يردد هذا الدعاء :

«اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة

من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، ولا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة إلا قضيتها .

إلى غير ذلك من كلمات الدعاء التي يتضح لك منها بلاغة الإمام ، وحسن اختياره ، وقوة تأثيره ، وعمق إيمانه .

وأخيراً ، وبعد سبعة وسبعين عاماً قضاهما الإمام أحمد بن حنبل عزيزاً كريماً صبوراً ، يحتمل الأذى في سبيل دينه ، ويعرض عن الدنيا ومتاعها ، مرض بالحمى ، وظل مريضاً تسعة أيام ، ولما حانت الساعة التي يليق فيها ربه ، أمر أهله أن يوضئوه ، ففعلوا ، وخرجت روحه الطاهرة وهم يوضئون ، وهو يذكر الله مهللاً ومنسجحاً ومكبراً .

وكان موته يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ ، وكفن في ثوب غزلته له جاريته ، وشيع إلى مقره الأخير ، في جنازة لم تشهد بغداد مثلاً ، إذ اشترك فيها ما يقرب من ثمانمائة ألف رجل ، وشهدها من خلف الأسوار ستون ألف امرأة ، ثم دفن في قبره بين مقابر الشهداء ، في « حي الحربية » ببغداد .

وكان يوم وفاته يوماً أليم الوقع في النفوس ، وخصوصاً لدى أولئك الذين حرمتهم الأقدار أن يروه في ساعاته الأخيرة ، أو يشتركوا في تشييعه ، ولكن الذي خفف على هؤلاء أحزانهم هو أنهم كانوا يرون الإمام ابن حنبل بعد موته وهو رافل في حلل الغبطة والسعادة بجنات النعيم .

عن محمد بن خزيمة الإسكندراني قال :

لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غماً شديداً ، فرأيت في المنام وهو يتبختر في مشيته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أى مشية هذه ؟ .

فقال : مشية الخدام في دار السلام .

فقلت : ما فعل الله بك ؟ .

فقال : غفر لي وتوجني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد ، هذا بقولك : القرآن كلامي . ثم قال الله لي : يا أحمد ، أدعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري ، وكنت تدعو بهن في دار الدنيا . فقلت : يارب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء . اغفر لي كل شيء . . حتى لا تسألني عن شيء . ! . فقال الله لي : يا أحمد ، هذه الجنة ، قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفيان الثوري ، وله جناحان أخضران يطيران بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَدَبُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ؛ فَنَمِمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ^(١) » .

فقلت له : ما فعل بشر الخافي (الزاهد الورع المتعبد) ؟ .

فقال : بخ بخ ! ومن مثل بشر ؟ تركته بن يدي الجليل ^(٢) ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! .

ولم لا يرفل ابن حنبل في ثياب النعيم ، ويتملب مع إخوانه السابقين في جنبات الفردوس ، ويحظى بخطاب العلي الأعلى وتشريفه ، وقد كان عفيف اللسان ، طاهر الجنان ، صائم النهار ، قائم الليل ، محروما من اللذات ، مجاهدا في سبيل الله بعلمه وماله وحياته ، وكان لا يملك من حطام الدنيا شيئا !! .

ومات يوم مات ولم يترك خلفه مالا ولا ديارا ولا عقارا ، وهو لو أراد وقبل الدنيا كما قبلها الناس لشبع جاهاً ومالا ، ولكنه فضل ما عند ربه ، وما عند الله خير للأبرار ! .

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٤ .

(٢) يقصد الله تبارك وتعالى .

من لنا بمن يغرس في قلوبنا هذه البذور النافعة ، ومن يأخذ بأيدينا إلى
الاقتداء بتلك المثل العالية ، ومن يوجه أبصارنا وبصائرنا إلى ذلك النور
الذي انبثق في فجر التاريخ على أيدي أولئك الأعلام ، نستضيء به في ظلمات
الأيام ؟ .

ومن لنا بمن يُسمع الدنيا كلها حديث أولئك الغر الميامين ، ليعلم القاصي
والداني أن سيادة الدنيا وعمارتها لا تكونان بالحديد والنار ، وإنما تكونان
بسامى العقائد ، ونيل الأخلاق ، وفاضل الأعمال . وسبحان من لو شاء
لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الطريق الى بطولته النصر

إن من واجبتنا أن نتذكر أو نتعرف عوامل النصر التي رسمها الله لعباده في طريق جهادهم وكفاحهم ، والتي صورها القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إن القرآن الكريم - وهو كتاب حق ، وكتاب عزة ، وكتاب جهاد - يرسم لنا صورة كاملة للعوامل التي نتصر بها في المعركة ، وهو يبدأ هذه العوامل بتقرير الإيمان بالله والوطن ، ونجد في آيات كثيرة هذا المعنى ، فيقول القرآن مثلاً : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ^(١) »

ونجد أغلب آيات الجهاد مبدوءة بهذا الخطاب الذي يصف المجاهدين بصفة الإيمان : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » . ولذلك ربط الله الإيمان بالنصر ، فقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال : « بَلِ اللَّهُ نَازِلُهُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ » . والإيمان بالله يستتبع الإيمان بالوطن ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « حب الوطن من الإيمان » .

والعامل الثاني من عوامل النصر - كما يصورها القرآن الكريم - هو قوة الجيش والسلاح والعتاد ، وخير ما يصور ذلك هو قول الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُم ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ^(٢) » .

(١) سورة النساء آية ٧٦ . والطاغوت هو الشيطان . (٢) سورة الأنفال آية ٩٠ .

والخطاب في قوله تعالى : « وأعدوا » ، موجه للأمة كلها ، لا للحاكم وحده ؛ ولا للحكومة فقط ؛ ولا لقوة الجيش بمفردها ؛ بل هو خطاب إلى شمل كل قادر على الإعداد والاستعداد ؛ سواء أكان رجلاً أم امرأة ، شيخاً أم شاباً ، غنياً أم فقيراً ؛ كل واحد منهم يبذل ما يستطيع من ماله ، أو جهده ، أو جهد عائلته ، في سبيل الإعداد ، لأن الخطاب عام في قوله تعالى : « وأعدوا »

ومعنى هذا أن الأمة كلها مطالبة بأن تكون مجتدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وأن تكون مشاركة في عملية الإعداد ، وحتى الذين يعجزون عن المشاركة الفعلية في المعركة كأصحاب الأعذار ؛ يستطيعون المشاركة فيها برأيهم ونصحهم وإخلاصهم . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : « لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا أَنْصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ^(١) » .

ثم يقول الله تعالى في الآية السابقة : « وأعدوا لهم » ، لمن ؟ .. هؤلاء الأعداء الذين يناصبونكم العداء ، هؤلاء المجرمين الذين يتربصون بكم الدوائر ، ويريدون لكم الخذلان ، ويتمنون لكم الضعف ، دون الاعتداء على مسلم أو مجاور لا يبغي ولا يظنى .

ولذلك يقول القرآن الكريم : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُوتُوا كُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ . أَنْ تَبْذُلُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ .. أَنْ تَوَلَّوهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »^(٢).

(١) سورة التوبة آية ١٦٥ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

ثم نقول الآية : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى كل ما قدرتم عليه ، وكل ما استطعتموه ، وأنتم أمة ، وأنتم جمع كبير ، وأنتم جمهرة ضخمة ، إذا تعاونت قدرت على الكثير ، والخطاب أيضا للجميع ، لا لفرد دون فرد ، ولا لطائفة دون طائفة .

ثم نقول الآية : « من قوة » . . . وهذه الكلمة تفيد شمول الأنواع والأبغاض ، أى كل نوع من أنواع القوة ، وكل جزء من أجزائها ، وكل بعض من أبعاضها . فلا تدعوا وسيلة ولا حيلة ولا طريقة ، ولا سبيلا من سبل القوة يدخل فى مكتكم واستطاعتكم وقدرتكم إلا سلبتكموه وانتفعتم به .

ثم نقول الآية : « ومن رباط الخيل » . والمقصود برباط الخيل فى الاصطلاح العسكرى الحديث « سلاح الفرسان » ، ومن الممكن أن نطلق على كل قوة سريعة التحرك والانتقال كلمة « رباط الخيل » بقليل من المجاز ، وذلك لأن الخيل كانت يوم نزلت الآية الكريمة أسرع وسائل الانتقال فى الميدان ، فيقابها اليوم كل آلة أو سلاح سريع الانتقال .

ثم قالت الآية : « ترهبون به » . فأنتم لا تعتدون بهذا الإعداد أو هذا السلاح ، ولا تهاجمون به مسالما ، ولا تستعمرون به بلادا ليست لكم ، ولا تحتلون به أرضا لا تدخل فى ملككم ، بل ترهبون به الأعداء ، وتخيفونهم به ، حتى تظلوا مهيبين محترمين ، لا يطمع فيكم طامع ، ولا يتناول عليكم متناول ، إذ لا يكفي أن تكونوا أصحاب حق ، بل لابد للحق من قوة تحرسه وتحميه وتصونه ، وتدافع عنه عند اللزوم ، وقديما قيل : « من لم يتدأب أكثته الذئاب » .

والإسلام لا يريد لنا أن نتدأب ، ولكنه يريد لنا أن نكون أسودا رابضة على حدود الحى ، فإذا فكرت الذئاب الدخيلة أو الطارئة فى الاعتداء علينا جعلنا مصيرها الهلاك ، وأذقناها الموت الزؤام .

فالأمة الناهضة الواعية المتوثبة للمجد والعزة والكرامة ، تعد جيشها

وسلاحها وذخيرتها لتخيف أعداءها بكل ذلك ، لا بالقول العريض ،
ولا بالتمنى الواسع ، ولا بالأحلام الخيالية ، ولا بترديد مفاخر الآباء
والأجداد فقط . وهذا شاعر عربي يترجم عن ذلك خير ترجمة فيقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمتم يوماً على الآباء تتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ، ونفعل مثلما فعلوا

وقد وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تفيد معنى الإعداد
والاستعداد والرباط ، وتنيد معنى حراسة الحق والحى والوطن بالقوة
المهياة ، والجنود المدربة ، والسلام الموفور ، والسيوف المناهبة للانضال إذا
حانت ساعة النضال ، فيقول الرسول : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

ويقول « جعل رزقى تحت ظلال رحى » .

ويقول : « رباط يوم فى سبيل الله أفضل من صيام شهر رقيامه » .

ومن عوامل النصر « الإنفاق » لأن إعداد السلاح ، وتكوين الجيش ،
وتوفير الذخيرة ، يحتاج إلى مال وإلى ثمن ، والمعركة تحتاج إلى إنفاق قبل بدئها ،
وحين قيامها ، وبعد انتهائها ، فنحن ننفق قبل المعركة فى الإعداد والاستعداد ،
وننفق فى أثناء المعركة لتموينها وإمدادها ، ولذلك يقول الله تعالى : « وتجاهدون
فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وهناك الإنفاق اللازم على أسر الجنود وعائلات المجاهدين فى الميدان .
ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن
خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » .

والإنفاق أيضاً يكون بعد المعركة ، لأن المعركة بطبيعة الحال تترك من
ورائها آثاراً فى الإنسان ، وفى البنيان ، وفى العمران ، وهذه الآثار تحتاج
إلى إصلاح وتعمير ، ومن الواجب على كل قادر فى الأمة أن يسهم فى هذا
الإنفاق بما يستطيع .

ومن عوامل النصر الأخذ بالأسباب والوسائل العملية للنصر ، وهذا لا يتنافى الإيمان بالقضاء والقدر ، لأن رب القضاء والقدر وهو الله يأمر باتخاذ الأسباب والوسائل ، والقرآن الكريم في مواضع كثيرة يأمر بالعمل : « وقل اعملوا » . ولقد نصر الله المسلمين يوم بدر وهم قلة ، لأنهم استقصوا جهودهم وبذلوا طاقتهم . وخذل الله المسلمين يوم حنين لأنهم قد أعجبهم كثرتهم ، واغترؤا بعددهم ، واتكلوا على هذا ، حتى قالوا : « لا غالب لنا اليوم من الناس » ؛ واتكلوا على أنهم مسلمون مؤمنون بالله ، فلا بد أن ينصرهم الله بلا جهد .

يقول الله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ^(١) فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ » .

ويقول أيضاً : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَبِئْسَ حُنِينٍ إِذْ أُعْجِبْتُمْكُمْ كَثْرَتَكُمْ ، فَلَمْ تَفْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ^(٢) » .

ويوجهنا القرآن الكريم إلى أهمية الأخذ بالأسباب العملية ، والاحتياط في المعركة ، فيقول : « وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ، فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ^(٣) » .

ويشير إلى أثر العامل المادى في كسب المعارك ، ويرمز إلى أن الحديد هو

(١) أى ضعفاء بسبب القلة — سورة آل عمران آية ١٢٣ .

(٢) سورة التوبة آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٢ .

العامل الأساسى فى القوة ، فيقول : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ^(١) » .

ويقول أيضاً فى مجال الإشارة والرمز إلى هذه الناحية متحدثاً عن داود نبي الله عليه السلام : « وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ ، وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ، وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ^(٢) » .

وهذا هو نوح فى حادث الطوفان لا يتكل على القضاء والقدر ، بل يصنع السفينة بأمر ربه ليركبها مع من آمن به : « وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » .

* * *

ومن عوامل النصر التى يصورها القرآن الكريم أيضاً ترتيب المعارك ، بأن نبدأ فى محاربة الأعداء بالأقرب فالأقرب ، لأننا لو تركنا العدو القريب الباغى ، وانتقلنا إلى عدو بعيد ، أو أقلّ عداوة من الأول ، لخشنا أن يكون فى طريقنا كمين أو رصد ، وقد يفاجأ الجيش فى هذه الحالة بحركة تطويق أو « كماشة » كما يعبرون ، تعرض الجيش للهلاك ، أو الهزيمة ، أو الخطر .

والقرآن يشير إلى هذا العامل حين يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَابْتَغُوا فِيكُمْ غَاظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(٣) » .
والذين يلونكم أى يجاورونكم من أعدائكم الذين يضمرون لكم العداوة ، ويتربصون بكم الدوائر .

ولذلك تقول الآية ما معناه : ليشعر هؤلاء الأعداء المجاورون أن فيكم غلاظة وشدة وقوة ، حتى تكون هذه الغلاظة زجراً لهم ، ورداً لبغيهم ، وتأديباً لسواهم .

ويقول الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا تَقَفْتُمْ فِي

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

(٢) سورة سبأ آية ١٠ ، ١١ .

(٣) سورة التوبة آية ١٢٣ .

الحرب فشرّد بهم من خلفهم (أى الذين بعدهم ووراءهم) لعلمهم يذكرون ،
أى يتعظون فيرتدعون . أى إذا عثرت على أعدائك المجاورين لك ، فشرّد
بهم الذين خلفهم ، أى افعل بهم من التأديب والعقاب والانتقام ما يكون سبباً
فى تفريق الذين وراءهم ، وتمزيق الذين بعدهم ، بسبب الرعب والخوف .

ويقول القرآن أيضاً : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ^(١) » ...
فهناك إذن مقاتلة ، والمقاتلة تقتضى اجتماع الفريقين المتقاتلين فى ميدان ؛ فهناك
إذن حالة تجاور ، أو حالة التحام بين المتقاتلين ، فلا يعقل عاقل أن يترك الإنسان
العدو الملتحم معه فى معركة ، أو على أهبة أن ينزل معه فى معركة ، ويذهب
ليقاتل عدواً بعيداً عنه ، بل المعقول والأمثل أن يبدأ الإنسان بالتخلص من
هذا العدو الملتحم ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى غيره من الأعداء .

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن المجيد عامل السمع والطاعة ،
والاجتماع على قائد واحد ، وهذا يصوره القرآن حينما يقول : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ^(٢) » .

وعند ما يقول : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا »
ولا شك أن الاجتماع على كلمة واحدة وقائد واحد هو أساس الاتحاد
والاعتصام والتسكتل ، وبدون هذا يكون هناك تفرق وتمزق وشتات .
وفى غزوة أحد مثلاً خالف بعض الجنود أمر القائد وهو الرسول عليه
الصلاة والسلام ، فماذا كانت العاقبة ؟ ... كانت أليمة وخيمة ، وأصيب
المسلمون بالانكسار والهزيمة ، ولولا فضل الله ورحمته ، وتماسك النبي فى
الميدان مع عصبة من الأبطال الثابتين ، لقضت عصاة الكافرين على
كتيبة المؤمنين .

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٦ .

وقد أنزل الله تعالى في شأن هذه المخالفة في غزوة أحد قوله :
« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ^(١) حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

ومن عوامل النصر أيضاً دقة التنظيم للجيش ، وحسن توزيعه ، والبراعة
في تحديد المواقع المناسبة لتجمعاته وتحركاته ، ومرابطة كل وحدة من وحداته ،
أو كتيبة من كتائبه في مكائدها ، فإن التوفيق في توزيع قوات الجيش على
المواطن الملائمة لها ولوظيفتها وواجبها يعد خير تمهيد لكسب المعركة وتقليل
تبعاتها وتكاليفها .

ولذلك يقول الله تعالى لرسوله متحدثاً إليه عما يبذله من تنظيم للجيش قبل
المعركة وتوزيع لأماكن أفرادها : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نَبُؤُا الْمُؤْمِنِينَ
مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ^(٢) » . أى أنك تركت أهللك ، وخرجت حريصاً على أن تعين
لكل فرقة أو فئة من الجيش مكانها المناسب لها الذى يجعلها صالحة فيه
للقيام بمهمتها الموكولة إليها .

وقد يتصل بهذا أن تكون هناك خطة دقيقة منظمة لانبعاث كتل الجيش
إلى المعركة أو خطوط القتال ، فهناك مثلاً وقت يناسبه أن يخرج الجيش فصيلة
بعد فصيلة ، أو فرقة وراء فرقة ، أو فيلقاً فى إثر فيلق .

وقد يأتى وقت نحتاج فيه إلى خروج الجيش كله للمعركة عامة أو زحف عام
تقتضيه المعركة ، ومن وراء الجيش تنبعث قوة الشعب كلها لتأييد ظهره ، وحماية
جموعه ، وإمداده بما يلزمه من المساعدات المادية والمعنوية .

(١) أى تستأصلونهم قتلاً — سورة آل عمران آية ١٥٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢١ .

والقرآن الكريم يصور هذا أو يشير إليه حينما يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ ^(١) أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا » .

وهذا يفهم منه أن الجنود يخرجون إلى المعركة بحسب الحاجة .

ولا يبعد عن هذا المجال ما شرعه القرآن الكريم من صلاة الحرب أو الجهاد ، فإن الصلاة فريضة مكتوبة على المسلمين : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » ولكن القرآن لم يغفل عنصر الاحتياط في صلاة الحرب ، فهو يعلمنا أن نقسم الجيش ، ففريق يؤدي الصلاة على حين يكون النصف الآخر مرابطاً أمام العدو ، ثم يذهب القسم الأول إلى المعركة ليجاهد ، ويأتى القسم الآخر ليصلى .

يقول القرآن الكريم : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ^(٢) » .

ولو جاء الزحف العام ، ولم يتمكن الجنود من الصلاة ، لأنهم في حالة قتال أو التحام ، فإنهم يتركون الصلاة ، ويتفرغون جميعاً للمعركة ، فإذا انتهوا منها أدوا ما عليهم من فريضة : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ^(٣) » .

(١) أى جماعة وراء جماعة — سورة النساء آية ٧١

(٢) سورة النساء آية ١٠٢ .

(٣) سورة النساء آية ٦٠٣ .

ومن العوامل المساعدة على الانتصار في المعركة ، التحريض عليها ، والتحبيب في الجهاد ، والدعوة إلى شرف الاستشهاد ، والقرآن العزيز في هذا الباب يقول : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ^(١) » .

ويقول محرضاً وداعياً إلى الجهاد : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ^(٢) » .
ويقول : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ويقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ^(٣) » .

ويقول : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، نَخَاؤُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ، وَزَرَقَكُمْ مِنَ الطُّيُبَاتِ ^(٤) » .
ويقول : « فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ، وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ، الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ^(٥) » .

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ . (٢) سورة النساء آية ١٠٤ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٨ . (٤) سورة الأنفال آية ٢٦ .
(٥) سورة النساء آية ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

ويقول مخاطباً الرسول : « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ
بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ^(١) » .

* * *

وقد يتصل بعامل التحريض عامل التقوية للروح المعنوية في الجنود ، حتى
يثبتوا ويطمئنوا ويثقوا بالنصر ، وقد عنى كتاب الله العزيز بهذه الناحية عناية
ملحوظة ، فتارة يخبر الله عباده المؤمنين بأنه معهم ، وأنه ناصرهم ، وكاسر أعدائهم ،
فيقول : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَمُتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَتَّقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ
بَنَانٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ، ذَلِكَمُ فُذُوقُهُ ، وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ الدَّارِ ^(٢) » .

وتارة يثير فيهم الحماسة والاعتزاز بأنفسهم ، والثقة بقوتهم ، وأنهم
قادرون بإيمانهم على قهر أعدائهم ، ولو كان هؤلاء الأعداء كثيرين ، فيقول :
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ^(٣) » .

وتارة يشعرهم بسمو مكانتهم ، وعلو منزلتهم ، ويهون عليهم ما يصيبهم
من تعب أو ألم ، لأنهم عظماء ، وإن العظام كفوها العظماء كما يقول الشاعر
العربي ، فيقول القرآن : « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَلَئِكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

(١) سورة النساء آية ٨٤ .

(٢) الأنفال آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٣) الأنفال آية ٦٤ ، ٦٥ .

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ^(١) .

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن الثبات في المعركة ، ولقد كان
المؤمنون صابرين في حروبهم ، ثابتين في معاركهم ، ولذلك نالوا الفوز والنصر
أكثر من مرة ، والله تعالى يقول في هذا المجال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ
إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ^(٢) أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ^(٣) فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ^(٤) » .

ويقول القرآن أيضاً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ فِئَةً فَانْبِئْتُوا ،
وَإِذْ كُرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(٥) » . ويقول : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ، كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرَّصُونَ ^(٦) » .

والقرآن الكريم في مجال الحديث عن الصبر والثبات يركّز أسباب النصر
في آية من آياته اختتم بها سورة آل عمران ، وهي قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(٧) » .

فبدأت الآية بمخاطبة المؤمنين ، لتتذكر جيداً أن المجاهد يجب أن يكون
مؤمناً بالقضية التي يجاهد في سبيلها ، موقناً بالمبدأ الذي يكافح من أجله ، ثم
أمرت الآية بالصبر : « اصبروا » . والصبر قوة نفسية تدفع صاحبها إلى الكفاح ،
ومتابعة الجهاد ، ودوام النضال .

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) أي مظهر الانهزام خديعة للعدو .

(٣) أي منضم إلى كتيبة من قومه ليقا تل معها متقوياتها .

(٤) سورة الأنفال آية ١٥ ، ١٦ . (٥) سورة الأنفال آية ٤٥ .

(٦) سورة الصف آية ٤ . (٧) سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

ثم انتقلت الآية إلى الأمر بالمصابرة فقالت : « وصابروا ، والمصابرة مغالبة للشدائد ، واتخاذ الوسائل لمعاجلتها والتغلب عليها ، وقديماً كان أجدادنا يقولون كشعار لهم : « الغمرات ثم ينجلينا » ، والغمرات يراد بها المتاعب والشدائد ، أى إن الشدائد تمر بالرجال والأبطال ، فيحسنون استقبالها ، ويحسنون معالجتها ، ويحسنون التغلب عليها ، ويحسنون التخلص منها ، وترحل الغمرات ، ويبقى الرجال أقوياء أشداء كما هم .

ثم تنتقل الآية الكريمة إلى عنصر « المراقبة » ، فتقول : « ورابطوا » . والمراقبة هى سد الثغرات الموجودة أو التى قد توجد ، وإحكام الحراسة للحدود ومظان الهجوم ، وهذه المراقبة تحتاج إلى إعداد وتدريب وسلاح ، وإقامة على خطوط الدفاع ونحوها .

ثم تنتقل الآية إلى عامل له أهميته فى النصر ، وهو عامل التقوى ، فتقول : « واتقوا الله » . وتقوى الله تفيد تطهير النفس من الآثام ، والبعد بها عن أسباب الانهزام .

ثم تأتى النتيجة لهذا كله وهى : « لعلكم تفلحون » ، أى تكون عاقبة الصبر والمصابرة والمراقبة والتقوى هى النجاح والفوز والفلاح .

* * *

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن الكريم التحبيب فى الشهادة ، وتسهيل الموت فى نظر الجنود المجاهدين ، فالقرآن الكريم يقول : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْغِلَاةُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ انْتَقَى وَلَا تظَلَمُونَ فَتَيَلَّا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ^(١) » .

ويقول القرآن : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِمَةٌ الْمَوْتِ ^(١) » .

ويقول : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ^(٢) » .

ويقول : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ^(٣) » .

والقرآن يتحدث عن الشهادة أعذب الحديث فيقول : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(٤) » .

ويقول : « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ^(٥) ؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ^(٦) » .

ويقول : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ، الَّذِينَ قَالِ

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٤ .

(٤) سورة التوبة آية ١١١ .

(٥) النصر أو الشهادة .

(٦) سورة التوبة آية ٥٢ .

لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْهُمْ سُوٌّ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ^(١) .

وبجوار التحبيب في الشهادة والتسهيل للموت ، يكون أيضاً التذكير بحسن العاقبة للمجاهدين في الدنيا والآخرة . فالمجاهد في سبيل الله — وهو سبيل الحق والعدل والخير — إما أن ينتصر فتكون له العزة في الحياة . وإما أن يكون شهيداً فيكون له عظيم الثواب في الدار الآخرة .

ولذلك يقول القرآن الكريم : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(٢) » .

ويقول القرآن أيضاً : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ^(٣) فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا ، وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ، فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ^(٤) » .

ومن عوامل النصر أيضاً أن نقضى على عوامل التخذيل ، بأن نبث قوة العزيمة ، ونحارب أشياع الهزيمة ، وأن نقطع الطريق على المخذلين ، حتى لا يقتربوا من المعركة ، أو يؤثروا فيها ، أو يشيعوا الشائعات حولها . ولقد حدثنا القرآن الكريم عن طائفة من المخذلين المعوقين كانوا على عهد النبي ،

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٦ .

(٣) مؤمنون علماء .

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

وكانوا إذا حضروا مجلسه تظاهروا بالطاعة والاستجابة، فإذا خرجوا من عنده خالفت أعمالهم أقوالهم، وهذا من الفتنة والفساد الكبير.

يقول القرآن الكريم في هؤلاء: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا»^(١).

ويقول القرآن الكريم عن فريق من غير المؤمنين: «وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»^(٢). ويتحدث القرآن عن الذين يشيعون الفتنة، وينشون الإشاعات، وينشرون أنباء المعركة لغير مصلحتها: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»^(٣).

ولا شك أن حالة الحرب تستدعي عدم التعرض لإذاعة الأنباء من غير المختصين بتلك الإذاعة، فقد يكون النبأ سيئاً، ويلزم كتمانها لمصلحة المعركة، وقد يكون الخبر أيضاً ساراً، ومع ذلك يلزم كتمانها في بعض الأحيان لمصلحة المعركة كذلك، فإباحة نشر الأنباء عن الحرب لغير المسؤولين عنها يؤدي إلى أضرار وأخطار، ولذلك نددت الآية الكريمة بأولئك الذين ينشرون الأنباء المختلفة عن المعركة وهم ليسوا مختصين بذلك، وهؤلاء يجب منعهم ومحاربتهم. وكذلك يقول القرآن الكريم عن المروجين للشائعات الناشرين للمفتريات في أثناء المعركة: «لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ

(١) سورة النساء آية ٨١

(٢) سورة النور آية ٤٧

(٣) سورة النساء الآية ٨٣

فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا
 تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^(١) .

ومن الواجب على ولي الأمر أن يطهر المعركة في ميدانها وخطوطها من
 هؤلاء المخذلين وأئمة الفتن والشائعات ، وهذا هو القرآن يحدثنا عن أمثال
 هؤلاء المفسدين ؛ فيقول عنهم فيما يقول : « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ
 عُدَّةً وَاسَكْنَ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ، لَوْ
 خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَا تُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ ، يَبْغُونَكُمْ
 الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ تَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ
 قَبْلُ ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ،
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّا لَنَنْصُرُكَ وَلَا نَمُوتُ ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنْ جَهَنَّمُ
 لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ، إِنْ أَصْبَحَ حَسَنَةٌ تَسُوءُكُمْ ، وَإِنْ أَصْبَحَ مُسِيبَةً
 يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرَحُونَ ، قُلْ لَنْ بُصِيبَنَا
 إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ بَوْلَانَا ، وَكَلَى اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(٢) .

* * *

ومن عوامل النصر أيضاً أن نتحمل تبعات النصر ، لأن النصر يأتي عادة
 عن طريق معركة ، والمعركة لها ثمن ، وكل من الغالب والمغلوب يدفع فيها ثمنا ،
 فيجب أن نتذكر هذا ، وأن ندفع الثمن راضين ، وأن نتحمل تبعات المعركة
 مؤمنين بأن هذا اختبار وابتلاء ، وأن الصبر في هذا المقام يؤدي إلى حسن
 العاقبة ، والله تعالى يقول : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ
 مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٦ — ٥١ .

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ^(١) .

كما أن مما يتصل بهذه الناحية أنه يجب علينا أن نحسن استعمال النصر ، وأن نحسن استخدام ثمراته ، فالله جل وعلا يقول : « إِنْ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » فجعل العاقبة لمن آمن واتي ، ولم يجعلها لمن يفجر أو يطغى ، ونشوة الظفر لها سكرة قد تؤدي إلى نتائج لا تفرق كثيراً عن الهزيمة ، إذا تجاوزت هذه النشوة حد العقل والحكمة إلى حد الغرور والطغيان ، ولذلك يقول القرآن الكريم أيضاً : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^(٢) » .

* * *

ولابد لنا ونحن نتحدث حديث الجهاد والاستشهاد أن نخص حديث الشهادة بمزيد من العناية والتفصيل ، لأن الجندى المربط المؤمن المخلص المجاهد في سبيل الله والوطن يقوم بعمل جليل شريف .

وأشرف ما يقوم به هذا الجندى في عمله هو أن يدرب نفسه ، ويوطن ذاته على موقف البأس وموطن الشهادة يوم يدعو داعي الحمى إلى هذه الشهادة ، وذلك بأن يتعلم الجندى « صناعة الموت » ، لا حباً في الموت ، ولكن حرصاً على العقيدة والحرية والعزة والكرامة .

فإذا ما أصبح الجندى مستعداً في الحقيقة والواقع لكي يصنع الموت عندما يطلب منه الوطن هذا الموت ، صار هذا الجندى جديراً كل الجدارة بإحراز النصر لنفسه ، والحرية لبلاده ووطنه .

و « صناعة الموت » ، هذه — أو الشهادة كما يعبر الإسلام — ليست صناعة

(١) سورة البقرة الآيات ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) سورة الحج آية ٤١

جديدة على مجتمعنا العربي المؤمن ، بل هي ميراث من موارثنا الروحية
والمعنوية والأدبية التي ورثناها عن آبائنا السابقين وأجدادنا الأقدمين .

فمنذ أقدم العصور كان العرب الأصحاء الأقوياء يتغنون بالتضحية والموت
في سبيل العقيدة ، والشهادة من أجل المبدأ ، وهذا أحد شعرائنا يتحدث عن
امراته التي خوفته مواطن القتال ومظان الموت ، وحذرتة المخاوف والمهالك ،
فيقول :

بكرت تخوفني الختوف كأنني أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهل لا بد أن أسقى بذلك المنهل
فاقتي حياءك لا أبالك ، واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

نعم إنه سيموت إن لم يقتل ، وقد تعددت الأسباب والموت واحد ، ومن
لم يمت بالسيف مات بغيره ، وما دام الموت مقدورا ، وما دام الأجل مستورا .
وما دام الموعد الحق لنهاية الحياة غير محدد في الظاهر ، فما أجدر الإنسان النبيل
بأن يختار السبب الذي يموت به ، وما أجدره بأن يجعل هذا السبب شريفاً
كريماً ، وطعم الموت في شيء عظيم ، كطعم الموت في شيء حقير ، كما يقول
أبو الطيب المتنبي .

وإذا كان الحقراء من الناس يبحثون عن أحقر الأسباب وأهونها ليموتوا
بها ، فإن السكرام العظام يبحثون عن أكرم الأسباب وأجلها ليموتوا بها ،
وإن العظام كفوها العظام :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وهذا هو الشاعر العربي الآخر يتحدث حديثاً بعيداً عن النفاق والمباهاة ،
لأنه يتحدث بهذا الحديث إلى نفسه ، وإذا ناجى الإنسان نفسه صار بعيداً عن
مواطن التكلف والافتراء ... إن الشاعر يقول لنفسه ما يثبته به في مواطن الحق
والصدق ، ومجالات البأس والهول ، ومواقع الموت والهلاك ؛ إنه يقول :
أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال : ويحك لن تراعي

فإنك لو سألت بقاءَ يومٍ على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

وهكذا أقبل الإسلام على العرب فأذكى فيهم كل خلق شريف، وأبقى
بينهم كل عادة طيبة، وأيد كل منهج سليم، ولقد اختار الله أمة العرب لتسكون
أول المؤمنين برسالة الإسلام، ولتسكون أول أمة تحمل هذه الرسالة إلى
العالمين، وكان في هذه الأمة خصالٌ وصفات، منها الطيب ومنها المذموم،
فأيد الإسلام ما زكا وعلا، وأصلح ما اعوج وانحرف..

ولقد زكى الإسلام شرعةَ الشهادة في سبيل الحق والعقيدة، وعلم المؤمنين
صناعة الموت في سبيل المبدأ والواجب، وذكرهم في صلواتهم وبجتمعاتهم
— عند تلاوة كتاب ربهم — أن صناعة الموت السامية صفة من صفات
المؤمنين، فقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ^(١)».

فهذه الآية الكريمة تفيدنا أن المؤمن قد باع نفسه، لم يبيعها بالمال،
ولا بالأرض، ولا بالمتاع، ولا بالوظيفة، ولكنه باعها لما هو أسمى من
ذلك وأعلى، باعها لبارئها وخالقها وهو الله جل جلاله، وثمن الحياة هنا
غال وعظيم، إنه الخلود في النعيم، والبقاء الأبدى في الفردوس، «وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ أَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^(٢)» أى هي الحياة العظيمة الكاملة،
ولذلك يقول القرآن المجيد في موطن آخر: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ^(٣)».

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

(٢) سورة النكبات آية ٦٤ .

(٣) سورة النساء آية ٧٤ .

ويأتي المعلم الأول والمصلح الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي قاد العرب إلى ساحات الإيمان والعدالة والكرامة الإنسانية ، فیرسم للمسلمين أيضاً طريق الشهادة ، ويعلمهم كيف يصنعون الموت في كل موطن شريف يحتاج إلى صناعة الموت ، وهو الذي يقول :

«والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ، ثم أقتل فأحيا ، ثم أقتل .»

وكأنه صلوات الله وسلامه عليه يريد أن تكون حياته سلسلة من تعاليم صناعة الموت لغيره ، وتتابعاً لذوق الشهادة في سبيل ربه ، فما يكاد يؤدي ضريبة الشهادة في معركة ، إلا ويتمنى العودة إلى معركة أخرى يذوق فيها طعم الشهادة مرة أخرى ، وهكذا دواليك حتى تنتهي حياته — صلى الله عليه وسلم — في شهادات متوالية متتابعة ، وفي جهاد موصول مستمر ، حتى ينال أعلى الدرجات عند ربه : «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»^(١) . «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَسَاكنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢) .

وللرسول صلوات الله وسلامه عليه في فضل الشهادة ومكانة الشهيد مجموعة رائعة من الأحاديث ، يحسن بنا أن نسمع طائفة منها :

(١) العنكبوت آية ٦٩ .

(٢) سورة الصف آيات ١٠ — ١٣ .

١ - « ما من عبد يموت له عند الله خير ، يسره أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا ، فيُقتل مرةً ثانية » .

٢ - « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذلك الذي يرفع الناس أعيانهم إليه يوم القيامة هكذا - ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته - ورجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلع من الجنب ، آتاه سهم غرب فقتله ، فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . لقي العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه ، لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذلك في الدرجة الرابعة » .

٣ - « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله : يا بن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ . فيقول : يارب ، خير منزل . فيقول : سل وتمن . فيقول : أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات ... لما يرى من فضل الشهادة » .

٤ - « ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » .

٥ - « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف ، أو متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ، ونصح لمواليه » .

٦ - « قال رجل : يا رسول الله ، أين أنا إن قُلت ؟ قال : في الجنة ؟ فألقى تمراتٍ كن في يده ، ثم قاتل حتى قُتل » .

٧ - « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

٨ - « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وكثير من الناس يظنون أن الشهادة في الإسلام تقتصر على الشهادة في معركة تقوم باسم الدين ، أو باسم نشر الدين ، وهذا خطأ كبير ، فالشهادة في الإسلام تكون لإزالة باطل ، وإلحاق حق ، وإزالة أى عائق أمام الأمة المؤمنة التي تريد أن تعز بجريتها وكرامتها ، ولا تقتصر الشهادة في الإسلام على معركة بين مسلمين ومشركين ، وإنما تكون الشهادة في كل موطن يكون فيه دفاع عن حرية أو وطن أو أهل أو مال .

ولست أقول هذا من عندي ، وإنما يقوله الصادق المصدوق محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو القائل : « من قُتِل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة التطبيقية العملية لصناعة الموت أو الشهادة .

فقد قال الرسول قبيل غزوة بدر : « من قاتل في سبيل الله صابراً محتسباً دخل الجنة » .

فيقول أحد الصحابة : أليس بيني وبين دخول الجنة إلا أن أقتل يا رسول الله؟ فيقول له : « ما بينك وبين دخول الجنة إلا أن تأكل هذه التمرات التي بيدك ، ثم تخرج إلى المعركة لتقاتل فتقتل فتدخل الجنة » .

فيقول الصحابي : « لئن صبرت حتى آكل هذه التمرات إنها إذن لحياة طويلة » .

ويلقي التمرات من يده ، ويخرج إلى المعركة يجاهد في سبيل عقيدته ومبادئه ، وهو يردد :

سعيّاً إلى الله بغير زاد إلا التّقى وعمل المعاد

ويأتى صحابي آخر إلى الرسول ، وهو يشكو عرجاً في رجله لا يستطيع معه أن يصول كما ينبغي في أرض المعركة ، ويطلب إليه أن يقبله بين المجاهدين ، فيجيبه الرسول :

« لقد وضع الله عنك كلفةَ الجهاد ، وليس على المريض حرج ، ولا على الأعرج حرج ! » .

فيقول الرجل معبراً عن صناعة الموت التي أتقنها وأحبها : يا رسول الله ، إنني أعلم أن الله قد وضع عني الجهاد ، ولكنني أريد أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ! . . . نعم يريد أن يطأ بعرجته هذه في الجنة . . . يا لروعة الجهاد !
ويا لحب الاستشهاد !

ويكرم الرسول هذه النزعة منه ، ويأذن له بأن يجاهد في سبيل عقيدته ، مع أنه غير مكلف بها ، لأنه يعلم أنه يجاهد في سبيل عقيدة ، إن انتصر فقد أعزها وعاش بها ، وإن مات في سبيلها فقد ضمن له الحياة الباقية الخالدة .

وتمضي الأيام ، ونجد الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه يعود إلى تعليم المسلمين صناعةَ الموت في سبيل الله وسبيل الحق ، فيقول لأحد قادة المسلمين ، وهو خالد بن الوليد : « يا خالد ، احرص على الموت تنوّه لك الحياة . . ومتى حرص الشعب على أن يموت في سبيل عقيدته فلا بد أن يحيا حياة عزيزة كريمة .

ويأتي خالد بن الوليد فيرينا من صناعة الموت وحرصه على الشهادة فنونا وألوانا ، ومع ذلك لا يموت خالد في معركة ، ولا بطعنة رمح ، ولا بضربة سيف ، بل يموت على فراشه ، ويعبر هو عن ذلك قُبيل موته ، فيقول :

« لقد شهدتُ سبعين زحفاً أو زُهاءها ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وهأنذا أهوت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . .

وقد يظن ظان أن هذه الصفة وهي صناعة الموت ، قد انطوى خبرها ، أو عني أثرها ، أو أصبحت ماضياً تذكره فقط ؛ وهذا غير صحيح ، فإذا كان هناك شهداء قد سقطوا في معركة العدوان الثلاثي ، فإنما هم قد ضربوا بذلك أمثلة على أن روح الاستشهاد مازالت تنطوي عليها صدور هذه الأمة المؤمنة :

ونحن هنا نسأل : من الرواد الأوائل الذين يطالبهم الله ويطالبهم الحمى
الغالى بأن يبدعوا بأنفسهم صناعة الموت ، أو صناعة الشهادة ، وأن يعودوا
فيلتقنوا غيرهم دروس الجهاد والاستشهاد ؟ . . من الطلائع الأولى التى تقف
كالمصاييح والمنارات على الخطوط والحدود والتغور والربط ، لتقول :
هلموا إلى موطن العزة والكرامة ؟ . . !

إنهم الجنود المربطون ، فأول واجبهم ، بل أشرف أعمالهم ، بل أسنى
أهدافهم ، بل أنبل غاياتهم أن يحملوا أرواحهم على أيديهم ، استعداداً لساعة
يطلب منهم فيها أن يبذلوا هذه الروح كريمة فى سبيل أعلى مقصد ،
وأشرف غاية .

فوصيتنا التى تتواصى بها إذن فى مجتمعنا المربط المجاهد أن تتعلم صناعة
الموت ، لالنتكون بقاء أو طغاة أو معتدين ، وإنما لنتكون على استعداد وفى
إعداد . فإذا ما حانت الساعة التى يطلب فيها البذل كنا كراماً مسامحين . . فليكن
شعار كل واحد منا قول الشاعر :

سأحمل روحى على راحتى وأمضى بها فى سبيل الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدا
فلنعش حياتنا فى إعداد للجهاد ، وفى حب للاستشهاد ؛ وبذلك تكون
هذه الحياة عزيزة كريمة ، تليق بالأعزة الأحرار ، ولينصرن الله من ينصره ؛
إن الله لقوى عزيز .

بطولة سماعة

إن السماحة الدينية لها أثرها الكبير في إشاعة السلام والوئام ، وفي تجلية القدوة الحسنة للمخالفين في العقيدة ، ولعل التأثير الذي يأتي عن طريق السماحة يكون أقوى من التأثير الذي يأتي عن طريق التعصب .

وهناك في تاريخنا الإسلامي شخصية كبيرة مشهورة ، لعلمنا قرأنا القليل أو الكثير عن أعمالها في مجالات السياسة والحكم والقوة ، ولكننا لم نقرأ شيئاً ذابال عنها في مجال السماحة الدينية ، وهي شخصية أحمد بن طولون .

وأحمد بن طولون من أصل تركي ، ولد سنة ٢٢٠ هـ ، وكانت أمه جارية لآبيه تُعرف « بقاسم » ، ونشأ نشأة طيبة ، بعيد الهمة ، حسن الدين ، مترفع الخلق ، يألف أهل التقى ، ويجب الشجاعة والإقدام .

وتولى أمر مصر سنة أربع وخمسين ومائتين ، وأكثر فيها من الجند ، وبني القطائع والقصور والأسواق ، ومد رواق العمران ، وأنشأ المساجد والعيون والمستشفيات ، وكان كريم اليد ، كثير العطاء ، وكان حسن الحيلة ، بارع التدبير ، عنيف الخصومة ، شديد العقوبة ، يرضى فيسرف في الإكرام ، ويفضض فيسرف في التنكيل .

وأصيب ابن طولون في آخر حياته بعلّة البرد والهيضة ، فكان بلاءً بطنه هذا سبباً في انحراف نفسه ، وتغير خلقه ، حتى ارتكب أموراً تجاوز فيها صراط الحق والعدل ، وكان آخر عبارة قالها وهو يعالج سكرات الموت : « يارب ، ارحم من جهل قدر نفسه فأبطره حبلك عنه » .

ثم مات ليلة الأحد لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين . ومن أمثلة سماحته الدينية ما رواه رهبان « دير القصير » ، وكان في جهة

حلوان في المكان المطل على الصحراء وعلى النيل ؛ وعلى القرية التي كانت معروفة باسم « شهران » ، وهي اليوم تعرف باسم « المعصرة » ، بين « طره » ، « وحلوان » ، ودير القصير ، مازال إلى اليوم عامراً ؛ قالوا :

كثيراً ما يطرقتنا الأُمير أحمد بن طولون ؛ ويخلو في بعض قلايينا (جمع قلية وهي الصومعة تكون في كنيسة النصارى) يفسكر ، وكان يأنس براهب منا يقال له أندونة ؛ فشكونا إليه يوماً أمر ابن المدبر صاحب الخراج بمصر ، وقلنا له : إنه يطالبنا بجزية رموسنا ، وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين .

فوقع إليه بخطه توقيعاً ، وقال لنا : احذروا أن تجعلوا توقيعى هذا كالسيف الذى يصل به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند إيصالكم إياه إليه ، والمسألة ، وحسن التلطف . فعجبنا من قوله ، وصرنا إلى ابن المدبر ، وإذا به قد بلغه خبر التوقيع ، واستعملنا ما أمرنا به الأُمير ، فأخذ التوقيع منا ، وبلغ بنا فوق ما نخبه .

ومن أمثلة عدالته أيضاً أنه أرسل أحد قواده ليجمع الخراج ، فاغتصب القائد من راهب خمسمائة دينار ، إذ قيل إن هذا الراهب يملك كنزاً ، فبكى الراهب وحزن ، فأشير عليه بأن يذهب إلى الفسطاط ، ويكتب قصته ويقدمها لابن طولون ، فإنه « أُمير عادل منصف » .

ففعل الراهب ذلك ، فبصر به حاجب ابن طولون ، وكان الحاجب صديقاً للقائد الظالم ، فسأل الحاجب ذلك الراهب عن حاجته ، فقص عليه القصة ، فغشى الحاجب تأديب ابن طولون لصاحبه ، فدفع للراهب خمسمائة دينار بدلاً عن القائد ، واسترضاه ، فرضى وعاد إلى بلده .

وعلم بعض الناس بالحادثة فأبلغوها ابن طولون ، فأحضر القائد والحاجب والراهب ، ثم قال للراهب : كان سيملك — وملك — أن تدعى عليه أى على القائد ، بثلاثة آلاف دينار ، حتى آخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره ..

ثم قال للحاجب : والله لولا أنها مكرمة سارعتَ إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقال الله عز من قائل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » اعمرت بك المطبئ (وهو السجن) ، ولكن احذر أن تعاود مثلها ، ولا تستبد بأمر تأتبه دون أن تعرفنا به ، ولا تطو عنا خبراً ، ولا سرا ، ولا قصة ترفع . فقال الحاجب : أفلنى أيها الأمير أقالك الله ، فوالله لا أعود لمثلها أبدا . قال : فانصرف إلى موضعتك .

ثم التفت ابن طولون إلى القائد وقال له : أفى رزقك تقصير عن مئونتك ؟ قال : لا .

قال : أتأخر عنك استحقاقك تأخيراً يضطرك إلى ما أتيت به ؟ قال : لا .

قال : فبأى حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبه ، وتبكي عينه ، وتفقره وأهله ؟ ألك حاجة أوجبت ذلك عليك ، أو ضرورة دعئك إليه ؟ ... المطبق^(١) !! . وأمر بسجنه في المطبق .

وذكر المسعودى فى « مروج الذهب » أنهم حملوا إلى ابن طولون رجلا معمرًا من الأقباط ، فى سنة مائتين وستين ونيف ، كان بأعلى بلاد مصر من أرض الصعيد ، وكان ممن يشار إليه بالعلم من لدن حدائته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم ، فأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الدراية ، وصرف همهته إليه ، وأخلى له نفسه فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإبراداته وجواباته فيما يسأل عنه ، نحو سنة ، فأجازه وأعطاه ، وردّه إلى بلده مكرما .

ولقد بنى ابن طولون عينا ليس لها نظير ، وقام ببناؤها له رجل نصرانى حسن الهندسة حاذق فيها ، يسمى سعيد بن كاتب الفراغى ، وهو الذى تولى

(١) أى انصرف إلى سجن المطبق فوراً .

أيضاً بناء مقياس النيل والصهريج — بل وجامع ابن طولون نفسه — ولما ذهب ابن طولون بنفسه إلى العين بعد إتمامها وقف بجواره في أرض رطبة كان فيها جبر لم يحف ، فساخت أقدام الفرس ، فتطير ابن طولون ، واعتقد أنها مؤامرة من النصراني فسجنه .

وبعد مدة تبين لابن طولون أن يعفو عن هذا النصراني ، وأن يستعين به في بناء الجامع ، فأحضره وكلفه العمل قائلاً : أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك . ولما تم النصراني المسجد بصورة رائعة ، وجاء ابن طولون لرؤيته ، صعد النصراني المذارة وصاح : أيها الأمير ، عبدك يريد الجائزة ، ويسأل الأمان ألا يجرى عليه مثل ما جرى في المرة الأولى فأمره ابن طولون بالانزول فقال : وحق رأس الأمير لا نزلت أو تؤمنني .

فقال : انزل فقد أمنك الله ، ولك الجائزة .

فنزل وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وخلع عليه ، وأجرى عليه رزقا واسعاً .

واتخذ ابن طولون لنفسه طبيباً نصرانياً هو سعيد بن توفيل ، وكان يصحبه في أسفاره ، ويأتمنه على صحته وحياته ، ويوصيه إسحق بن إبراهيم بأن يخلص في علاج الأمير المريض ، فيقول : « ويحك ، أنت حاذق في صناعتك ، قارِهٌ فيها (أي مجيد) وليس لك عيب إلا أنك مُدِلٌّ بها غير خاضع لمن تخدّمه بها ، والأمير — وإن كان فصيح اللسان — هو أعجمي الطبع ، وليس يعرف أسباب الطب ومقدار صناعته ، فندل فيها عليه ، فيحتمل ذلك لمقدار محل الطب والحاذق فيه ، وقد أفسده أيضاً إقباله عليك ، فالطف به وارفق به ، ودارره ، وخطبه من حيث يشاء ، واخدمه كما يختار ، وواظب على أمره ، واحتمل شيئاً إن جرى منه ، فإن احتملك يثنيه عما لعلك تنسكه » .

ولما دخل ابن طولون دمشق ، وقع بها حريق في بعض بيوت النصارى عند كنيسة يسمونها « كنيسة مريم » فركب ابن طولون إلى مكان الحريق ، ومعه أبو زرعة المصري وأبو عبد الله أحمد بن محمد الواسطي كاتبه .

فقال ابن طولون لأبي زرعة : ما يسمى هذا الموضع ؟ .

فقال : كنيسة مريم . .

فقال الواسطي : أكان لمريم كنيسة ؟ . .

قال : ما هي من بناء مريم ، وإنما بنوها على اسمها .

فقال ابن طولون : مالك والاعتراض على الشيخ ؟ . ثم أمر بسبعين ألف دينار من ماله ، وأن يعطى كل من احترق له شيء ، ويقبل قوله ولا يستحاف ، فأعطوه لمن ذهب ماله ، وفضل من المال أربعة عشر ألف دينار .

ولما اشتدت العلة بابن طولون طلب من الناس أن يدعوا له ، فخرج المسلمون بالمصاحف إلى سفح الجبل ، وتضرعوا إلى الله في أمره .

ولما رأى النصارى واليهود ذلك من المسلمين خرج الفريقان : النصارى بالإنجيل ، واليهود بالتوراة ، وفي أيديهم حزم الآس ، وفي أيدي شمامستهم البخور ، يبخرون ببخورهم الذى يتبركون به .

واجتمعت الجماعة كلها فى سفح الجبل ، واعتزل كل فريق منهم على حدة يدعون الله ، ويتضرعون إليه فى شفاء الأمير .

هذه طائفة من صور السحاحة الدينية التى تبدت فى حياة الحاكم المشهور أحمد بن طولون ، ولاشك أن فيها عظة وبلاغاً للذين يريدون أن يكونوا أمثلة لمسكارم الأخلاق فى هذه الحياة . .

بطولة أريجيت

كلما تطاعت عيني إلى حاضر الناس الملىء بالدنيا والصغار، الملوث بالآغراض والشهوات، المحشود بالحرص والطمع، والتكالب على اللذات، أحسست بخسة بعض الأحياء وصغار بعض الأنفس، وخيل إلى أن الدنيا قد تبدلت وتغيرت، فأنحطت بعد ارتفاع، وسمجت بعد رونق وبهاء، وكأنا غمس بعض البشر في ماء منتن آسن، نخرجوا منه وحوشاً ضارية، وأفاعي خبيثة، وجراثيم دنيئة.

وكلما رجعت بعقلي وقلبي إلى التاريخ، وانتقلت بعين خيالي إلى الماضي، واستعرضت حياة الذين سلفوا من الأجداد، وطالعت صفحات مفاخرهم ومآثرهم وأبجادهم ومحامدهم، أحسست أني أرتفع عن مستوى الطين الملوث وأتنقل في آفاق عالية سامية، كلها سناء وسنا، وذكاء وحجا، وبر وتقوى، وإيمان وهدى، وارتياح للجميل، وحرص على المسكرات، واستمساك بالفضائل، وفناء في الخير. وتضحية بالجايل، بما يخيل لقصير النظر أو ضعيف الهمة أن هذا من ضروب الخيال، وما هو من الخيال، ولكن الحال غير الحال. إليك مثلاً من هذه الأمثلة العالية التي يحار أمامها الجنان والبيان والبنان:

ذكروا عن جود عبيد الله بن معمر أن رجلاً من أهل البصرة كانت له جارية نجبية أدبية حبيبة، فاقت في كثير، وقعد الدهر بسيدها حتى أعدم^(١) وقدم عبيد الله البصرة، فقالت الجارية لسيدها مخلصاً: إني أريد أن أذكر لك شيئاً أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أنه يسهل عليّ ذلك ما أرى من ضيق حالك، وقلة مالك وزوال نعمتك: هذا ابن معمر قد علمت شرفه وفضله وسعة كفه،

(١) أي أفقر.

وجود نفسه فلو عرضتني عليه هدية رجوت أن يأتيك من مكافأته ما تقوى به
وتتسع يدك ! ..

وبعد جدال قبل مرغما ، وذهب بها إلى ابن معمر يعرضها عليه هدية ،
فقال : مثلي لا يستهدى مثلك (لغناى وفقرك) ، فهل لك في بيعها ، وأجزلك
الثن عليها حتى ترضى ؟ ... أيقنعك منى فيها عشرة آلاف درهم ؟

فقال : ياسيدى ، والله ما امتد أُملى إلى عشر ما ذكرت ، ولكن هذا فضلك
المعروف وجودك المشهور ! .. ثم أخذ المال ودنا منها ليودعها بإذن سيدها
الجديد فتمالت :

هنيئاً لك المال الذى قد أصبته ولم يبق فى كفى إلا تفكرى
أقول لنفسي وهى فى كرب عيشة أقلى ، فقد بان الحبيب ، أو اكثرى
إذا لم يكن الأمر عندك حيلة ولم تجدى بداً من الصبر فاصبرى

فدمعت عيناه وتذكر ماضيه معها فقال :

أنوح بحزن من فراقك موجد أقاسى به ليلاً بطول تفكرى
ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاعذرى
عليك سلام الله ، لازور بيننا ولا وصل ، إلا أن يشاء ابن معمر

فقال عبيد الله بن معمر : قد شئت ذلك ، فخذ جارىتك ، وبارك الله لك
فى المال ! .. فأخذ الرجل جارىته التى أحبها وأحبته ، وعادا غنين ، فاستأنفا
ما كانا فيه من حياة كلها حب وجمال ! .

هكذا كان الرجال يوم كانت الدنيا ، وهكذا كانت الأريحية يوم كانت
الحياة تضم نماذج عليا من الرجال ، يهون عليهم كل شيء فى سبيل صنائع
المعروف ، ويضحون بكل شيء فى سبيل إغاثة ملهوف ، أو إسعاد مكروب ،
أو تأمين خائف ، أو إعانة محتاج ... أما اليوم فحديثه معلوم ، فما هو بحاجة
إلى تبيان ! .

بطولة مكارم الاخلاق

مكارم الاخلاق قوة نفسية تمنع صاحبها من ارتكاب ما يُستقبح، وتدفعه إلى التحلي بما يجب ويذبحى، وقد عرّف القدماء الخُلق بأنه «هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر أو روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سُميت الهيئة خُلُقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها أفعالاً قبيحة سُميت الهيئة خلقاً سيئاً» .

وكانما أرادوا من ذلك أن يقولوا : إن الخلق لا يكون خلقاً حتى يصير كالطبع والسجية ، لا يظهر به صاحبه تكلفاً أو منافقة ، بل ياتزمه في إيمان و يقين .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى لمكارم الأخلاق . وتحلت فيه هذه المكارم ، كأنها عنصر من طبيعته ، وجانب من ذاته ، ونشأ منذ أدرك ما تزمها هذه المكارم ، متحلياً بفضائل الأعمال ، متباعداً عن رذائل الأمور ، وعرف قومه ذلك منه قبل أن يحمل لواء الرسالة ، فوصفوه « بالوفي الأمين » ، وأنشأوا عليه بما هو أهله .

ولما أوقدوا نار العداوة بينهم وبينه لم يستطيعوا أن ينكروا عليه أخلاقه السامية ، وشهدوا له بذلك في موقف مشهود يوم الفتح، حين قال لهم وهم أعداؤه الذين فعلوا به وبقومه الأفاعيل : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . . .

وجاء القرآن الصادق المصدوق ، فسجّل لمحمد شهادته العطرة الباقية ، وأعطاه لواء الحمد بين المتجملين بمكارم الأخلاق : فقال له ربه في كتابه : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وقال : « أَقَدَ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ^(١) » .

وتحدث الرسول بنعمة ربه عليه ، حين جمَّله بالأدب الرفيع ، وجعله مثلاً لاسمو الطباع ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .

والرسول هو المثل العملي الأول الذي تتحقق فيه مبادئ الإسلام ، فإذا كانت رسالته شبه محصورة أو مقصورة على تتميم المكارم ، فإن أولى الناس بتجلى هذا التمام الخلقى فيه هو الرسول ، وكذلك كان ! .

ولم يقتصر الرسول على تجميل نفسه بمثالية الأخلاق الكريمة ، بل جاهد جهاد الصدق ليغرس أصول الأخلاق الفاضلة في نفوس أصحابه وأتباعه ، وليجعلهم كالملائكة يمشون بين الناس مطمئنين ، هادين بأقوالهم وأعمالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وهو القائل للمسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وحالح الناس بخلق حسن » .

ولقد قيل له : أى المؤمنين أكمل إيماناً ؟ .

فقال : أحسنهم خلقاً .

وكان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يحرص على أن يوصى أصحابه بمكارم الأخلاق في كل فرصة مواتية . وهذا معاذ يقول : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والنفقة في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ،

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

وأنهك أن تسب حكيما ، أو تكذب صادقا ، أو تطيع آثما ، أو تعصى إماما عادلا ، أو تفسد أرضا ، وأوصيك بائتما الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية » . . .

وجاء رجل إلى الرسول وقال له : يا رسول الله أوصني .

فقال : « عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه نور لك في الأرض ، وذكر لك في السماء ، واخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان » . . .

وهو يحفظ لمكارم الأخلاق هذه المسكاة الرفيعة — لا في الدنيا وحدها — بل في الآخرة دار الخلود ، فقد سألته زوجته أم سلمة ذات يوم عن المرأة تزوج رجلا بعد رجل في الدنيا ، فن يكون زوجها في الآخرة ؟ .

فقال لها النبي : « يا أم سلمة إنها تخير فنختار أحسنهما خلقا ، يا أم سلمة ، ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة » .

كما يخبرنا الرسول أن مكارم الأخلاق هي التي ترفع رتبة المسلم في الجنة درجات فوق درجات ، ولذلك قال : « أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » .

وقال : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

والرجل المتجلى بمكارم الأخلاق يعجب به أن يرى هذه المكارم متجلية في غيره ، فهو يقدرها ، وينوه بها ، ويرعى لصاحبها مكانته ويثني عليه بالذى هو خير ، ولما كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى لمكارم الأخلاق نراه ينشرح صدره وتقر عينه إذا رأى مكرمة تبدو من إنسان ، وينوه بالخلق الحسن ولو تجلى في غير مسلم . فقد روت السيرة أن بنت حاتم طي وقفت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وهي أسيرة حرب ، فقالت له : « يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ،

ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ،
أنا بذت حاتم طيء .

فأعجب الرسول صلوات الله وسلامه عليه بحديثها ، وقال لها : « يا بجارية ،
هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مؤمناً لترحمتنا عليه » :

ثم قال لقومه : « خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله
تعالى يحب مكارم الأخلاق » ١٩ .

فتمام أحد الصحابة وتسامل في إعجاب قائلاً : « والله يحب مكارم
الأخلاق » ١٩ .

فقال الرسول : « والذي نفسى بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن
الخلق » .

والمتتبع لسيرة محمد صلوات الله عليه وسلامه يجد أن مثالية الأخلاق
الكريمة قد صارت في ذاته وحياته حقائق ووقائع ، فهو في سلمه وحربه ،
في رضاه وغضبه ، في بيته ومجتمعه ، في أصحابه وأعدائه ، مثل ، فريد للشخصية
الكاملة المحصنة بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال .

وها هم أولاء أتباع محمد عليه الصلاة والسلام يقبسون على عمر الأيام
وتوالى العصور من أضواء الأخلاق المحمدية ما يهديهم طريقة السوى في
الحياة ، وما يزيدهم ارتباطاً وإعجاباً بذلك الرسول النبيل الجليل .

ولله در « شوقي » حين يخاطب الرسول مصوراً جوانب من أخلاقه
النبوية ، فيقول فيما يقول :

يا مَنْ له الأخلاقُ ما تهوى العلا	منها ، وما يتعشق الكبراءُ
لو لم تَقمْ ديناً لقامت وحدها	ديناً تضيء بنوره الآباءُ
زانتك في الخلق العظيم شمائلُ	يُغري بهن ويولع الكرماءُ
وإذا رحمت فأنت أم أو أبُ	هذان في الدنيا هما الرحماءُ

وإذا غضبت فإنما هي غضبة في الحق ، لا ضغن ولا بغضاء
وإذا قضيت فلا ارتياب ، كأنما جاء الخصوم من السماء قضاء
وإذا ملكت النفس قتت ببرها ولو أن ما ملكت يدك الشاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمـه ووفاء

أما بعد ، فإن العالم اليوم يتعرض لمحنة الأخلاق أشدّ مما يتعرض لأي محنة
غيرها ، بل قد تكون محنة الأخلاق في العالم مبعثاً لمحـن كثيرة غيرها ، فإذا
أراد الناس أن يسعدوا حقاً في هذه الحياة ، فإن عليهم أن يستمسكوا بعروة
الأخلاق الفاضلة والشيم العالية ، وإذا تطلب هؤلاء نبراساً هادياً في هذه
السيـل ، فأمامهم نبي الرحمة ورسول الأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام ،
ففيه القدوة والأسوة ، وفيه المثل الأعلى لمكارم الأخلاق .

بطولة حليم

علمنا صخب الدنيا ، ولغب الحياة ، واشتجار المصالح ، وتكالب النفوس على المنافع ، أن نكون حراً أصاً على ما في أيدينا أشقاء به ، ولو كان في بذله أداء الحقوق ، أو كسب المكرمة ، أو دفع المذمة ، وأن نكون غضاباً تشور لأنفه الأسباب ، ونسارع إلى منكر القول من السباب ، وكم من مشكلات وأزمات تملأ مجتمعنا اللاهث الأنفاس ، من جراء هذين العيين : الحرص والغضب .

وقديماً كان السابقون من أسلافنا الأجداد يحذرون هذين العيين كل الحذر ويرونهما مسببة للرجولة ، ومذلة للعقل ، ولو شئنا استقصاء الأمثال لاتسع المجال ، وامتد المقال ، فحسبنا من البحر ليدل عليه قطرة ، ومن الروض ليرشد إليه زهرة :

هذا هو معن بن زائدة الشيباني المتوفى سنة إحدى وخمسين ومائة ، كان أميراً على سجستان ، وكان أحد الأبطال والأجواد ، وكان مضرب المثل في الصبر والحلم والرزانة ، حتى ليحسب بعض الغافلين أن هذا منه ضعف وهوان ، وإنما هو كرم وإحسان .

من دلائل كرم معن أن راكباً على ناقته أقبل نحو بيته ، فقال معن لحادمه : لا تحجب هذا ، فلما مثل الراكب بين يديه أنشد :

أصلحك الله ، قلّ ما يدي فما أطيق العيال إذ كثروا

أناخ دهر على كلكله فأرسلوني إليك ، وانتظروا !

فاهتز معن طرباً ، وأخذته أريحية الأصيل الكريم ، وكان غنياً مكثراً . فقال للرجل : والله لأعجزن أو بئك إليهم ! . وأعطاه مائة ناقة وألف دينار !

وجاءه الشاعر مروان بن حفص ، وأنشده قصيدة يمدحه فيها ومنها قوله :
معن بن زائدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شيان
فأعطاه على تلك القصيدة مائة ألف . ومن دلائل رزاقته وحلمه أن أعرابياً
دخل عليه يحاول إغضابه وإثارة الحاجة فى نفسه . وكانما ملح معن منه هذا ،
فأراد أن يعطيه درساً فى الصبر على سفاهة السفهاء . فكان بينهما الحوار التالى :
قال الأعرابي لمعن وهو جالس على سرير إمارته :

أتذكر إذ قيضك جلد كبش وإذ نعلاك من جلد البعير
وفى يمينك عكاز طويل تهش به السكلاب عن الهرير
أجاب معن وهو مطمئن هادئ : نعم أذكر ذلك ولا أنساه .
عاد الرجل محاولاً إثارة معن فقال له :

فسبحان الذى أعطاك ملكاً وعليك الجلوس على السرير
فأجاب معن : بحمد الله لا بحمدك ! . . فقال الأعرابي :
فأقسم لا أحبيك ابن معن مدى عمرى بتسليم الأمير
قال معن : إذن والله لا أبلى ! .
فقال الأعرابي :

فرلى يابن ناقصة بمال فإنى قد عزمت على المسير
فقال معن لغلامه : أعمله ألف درهم .

فقال الأعرابي :

قليل ما أمرت به ، وإنى لأطمع منك بالشيء الكثير
فما تغير معن عن صبره وحلمه على الرغم من كل هذا ، بل بالغ فى الإبانة
عن كرم نفسه فقال لغلامه : زده ألف درهم . فقال :
ملكك الجود والإنصاف جمعاً فبذل يديك كالبحر الغزير
فقال معن : يا غلام ، ضاعف له الحساب ! .
سلام عليك يا معن بن زائدة فى كرام الخالدين . .

بطولة عزة

عزة النفس خلق يتحلى به المرء إذا كان كريم الطبع نبيل المعتقد ، فيترفع به عن مواطن الذلة وأعمال الصغار ، ويدخل به في زمرة الأماثل الأعزاء الذين يرضى عنهم ربهم ، ويدخلهم في مفهوم قوله عز من قائل : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا الْعِزَّةُ لِمَنِ الْوَعْدُ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابِهِ يُنصَرُونَ » (١)

ولعل أول حقيقة من حقائق عزة النفس أن تكون للإنسان شخصيته المستقلة ، وذاتيته المتميزة ، يؤمن بالشيء فيلزمه ، ويحرص عليه ، ويتمسك به ويدافع عنه ، ويعرف قبح أمر من الأمور ، فيكون أول المنتهين عنه ، النافرين منه ، ويعرف جمال أمر من الأمور فيتجلى به ، ويلجأ إليه ، لا يرجع في ذلك الانتهاء أو الالتجاء إلى رأى الناس ، أو إقبالهم ، أو إدبارهم ، فكم شاع بين الناس باطل ، وكم ضاع بينهم حق .

ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يعطينا في ذلك الباب درسا عميقا دقيقا ، من تدبره على وجهه انتفع به في مواطن كثيرة من مواطن الخير والبر ، وساحات الصلاح والإصلاح . يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يكن أحدكم إمعة (٢) » ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءاتهم .

وما دام الحق سبحانه قد خلق الإنسان فسواه فعدله ، فوهب له العقل والتفكير والتمييز ، وجعله حراً ، له ما كسب ، وعليه ما اكتسب ، ولا يحمل إلا ما فعل ، ولا يسأل إلا عما ارتكب ، فمن مخالفة السنن الطبيعية ومن التكر للنعم الإلهية ،

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

(٢) الإمعة الشخص الذى لا رأى له ، بل يتابع غيره فى الرأى .

ومن الهضم للكرامة الإنسانية — أن يترك الإنسان هذه الحرية إلى عبودية
يفرضها عليه سواء في جسمه أو فهمه .

ولذلك رأينا عمر الفاروق يستنكر على عمرو بن العاص وولده استعلاءهما
على الناس ، وظهورهما بمظهر السادة على العبيد ، مع أن الكل خلق الله ،
وهم كأسنان المشط في الاستواء ، فيقول عمر لعمرو : « متى استعبدتم الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

بل نرى عمر بن الخطاب من قبل ذلك بسنوات يعز عليه أن يرى الحق
مهبض الجراح ، على حين أن الباطل يتنمر ويستأسد ، وأن يرى الإسلام مرغما
على التخفي والاستتار ، في حين أن الكفران مُسَلِّحٌ في المجاهرة والاستعلان ،
فتأخذه عزة المؤمن ، ويقول في ثورة الموقف : « يارسول الله ، ألسنا على الحق
وهم على الباطل ؟ »

ويحييه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « بلى » .

فيقول عمر ناسيا ما هناك من ظروف تستوجب هذا الاستتار الموقوت :
« فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ » .

ويقوى المسلمون الأولون بإسلام عمر ، ولا يبقى لعمر مكان جالس فيه
بالكفر إلا جالس فيه بالإيمان ، وتظهر عزة الإسلام في أهليه السابقين حين
يخرجون إلى الناس وعلى رأسهم أستاذهم الأول محمد عليه الصلاة والسلام ،
فيكون هذا الخروج عنواناً من عناوين العزة المؤمنة ، ويستحق عمر بذلك أن
يلقب بلقب « الفاروق » .

ولم لا يكون للفاروق هذا الشأن في باب عزة النفس ، وهو الذي يصور
تلك العزة تصويراً رائعاً في كلمات قصيرة وجيزة ، ولكنها بليغة شافية ،
يقول رضوان الله عليه : « يعجبني من الرجل إذا سيم خطّة خسف أن
يقول : (لا) بملء فيه ! » .



والناظر في صفحات التاريخ الإسلامى يرى للصدر الأول من رجالات الإسلام مواقف تزدان بهذه العزة العالية ، الدالة على سمو النفس وشرف الهمة ، فهذا أبو بكر الصديق يتولى خلافة المسلمين ، ويصبح راعياً لهم ، ويصبح أبو سفيان فرداً من أفراد رعيته ، وأبو سفيان هو الذى كان وكان قبل الإسلام ؛ كان سيداً فى قومه ، عزيزاً فى ناديه ، عالياً بعصيته ، مستعليماً بأسرته ، ولم ييكر بالإسلام .

وذات يوم كان أبو بكر يراجع أبا سفيان أموراً أتاها ، وكانت تلك المراجعة بما لأبى بكر من حق الخلافة والولاية والرعاية ، وأقبل والد أبى بكر « أبو قحافة » وهو مكفوف ، وسمع صوت ابنه يعلو فى المراجعة والنقاش ، فقال لقائده : على من يرفع أبى عتيق صوته ؟ فقال له : على أبى سفيان .

فأقبل على ابنه يعاتبه فى ذلك ، وكأنه لا يزال يخشى بأس أبى سفيان على أبى بكر ، فإذا أبو بكر يصور عزة النفس وعزة الإسلام فيقول : « يا أبتاه ، إن الله أعزَّ بالإسلام قوماً ، وخفض به آخرين ، ! »

ولا عجب فأبو بكر قد تخرج فى مدرسة النبوة التى تعلّم ابنها كيف يكون عزيزاً من دور الصبا وطور الفتوة ، فهما هو ذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدخل بيت الصدقة ومعه الحسين بن على وهو صبي ، فيأخذ الحسين ثمرة من تمر الصدقات ، فيأمره النبي أن يلقيها بعد أن لامست شفثيه ، ويقول له : « إنا أهل بيت لا تحمل لنا الصدقة » ، وهذا تحبيب نبوى كريم فى العزة وسمو الهمة .

وإذا ما انضوت نفس المرء على هذه العزة هانت فى نظره أعراض الحياة ، ولم تفتنه لذة ، ولم تؤسسه شدة ، وهما هو ذا الإمام الشافعى ينشد وهو العزيز الأبى :

أمطرى أولوا سماء سرنديب ب وفيضى جبال تسكرور تبرا

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
هتق همّة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما فقد الإنسان هذه العزة في نفسه فهو والحيوان الأعجم سواء :
ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد !
اللهم هب لنا أمن عصمتك ، ورعاية عزتك ، فأنت رب العزة والجبروت
وأنت أكرم مستول ، وأفضل مأمول .

بطولة رجوليت

يهل علينا كل سنة نور المحرم ، وهو الشهر الحرام ، و فاتحة العام ، وأول السنة الهجرية ، وله ذكرياته وعظاته ، ولطائفه ونفحاته ، وفي العاشر من هذا الشهر سنة إحدى وستين من الهجرة استشهد سبط الرسول ، وريحانته من الدنيا ، وأبو الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة : الحسين بن علي رضي الله عنهما .

وقصة استشهاده صفحة دامية من صفحات التاريخ الإسلامي ، وما بنا من حاجة إلى إثارتها من جديد ، فما أحوج تلك الجراح المشخنة إلى أن نسمح عليها بيد التغافل والنسيان ، حتى لا ننسكأها أو نعيدها جذعة ! . ولدينا بحاجة إلى أن نلتهمز الفرصة فنستعرض من حياة الحسين مواقف رائعة ، فيها نبيل ورجولة ، وإباء وشم ، وسمو وعلو ، وذكرى لقوم يعقلون ، « وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

في بيت النبوة الطاهر ، وحنان محمد العظيم ، ورعاية علي ، الوالد المؤمن ، ورحمة فاطمة ، الأم البتول الزهراء ، نشأ الحسين على الطهارة والنقاء ، والبركة والصفاء ، والعلم والتقوى ، والبر والهدى .

وكيف لا يكون كاملاً وعينه لا تقع على قبيح ، ويده لا تمتد إلى مكروه ، وهناك عين النبي عليه الصلاة والسلام ، تلحظه وترقبه ، فتمنعه من الذنبة ، وتحببه في الرفعة ، حتى لقد حدث أن صعد الحسين وهو صغير إلى غرفة صدقات المسلمين ، فأخذ منها ثمرة ، ووضعها في فيه ، فرآه النبي فغضب منه ، وكره له ذلك ، وقال : « ألقها ! ! ! فإنها لا تحل لنا الصدقة ، ! ! ! » .

وبهذا الإباء علم محمد أهله أن يترفعوا عن الصغائر ، وأن يجعلوا أيديهم

عليها فلا يمدوها إلى صدقات الناس ، ولا يُذلوا رقابهم لمعروف غيرهم ،
وعلمهم ألا يتخذوا النبوة متجراً أو مغنماً ، بل عليهم أن يكسبوا قوتهم بعرق
جبينهم ، وأن يكونوا سباقين في ميادين العمل الشريف والكفاح المشكور ،
بدلاً من أن يتكففوا الناس ويسألوهم ، أعطوهم أو منعوهم ! .

ولكن هذه الرفعة النفسية والسمو الخلقى ما كانا لئيمنا الحسين عن التواضع
حين يحسن التواضع ، وما كانا ليدفعاه إلى الزهو والكبرياء ، بل هو
يضرب القدوة من نفسه في دماء الخلق وسهولة الطباع ، فقد مر ذات يوم
على بعض المساكين من أهل الصُفَّة ، وهم يأكلون طعامهم القليل المتواضع في
الصفة وهي ناحية من المسجد النبوى ، فقالوا له : الغداء يا بن بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم ! . . .

فقال : إن الله لا يحب المتكبرين ! . . .

ثم نزل وجلس وتغدى معهم كأحدهم ، وقضى معهم زمناً ، ثم قال لهم قولة
الرجل الجواد الذى يسلك إلى الإحسان خيرَ سبيل وأجمل طريق : قد أجبتكم
فأجيبوني ! . . .

قالوا : نعم ! .

فمضى بهم إلى منزله ، وقال لخدمته الرباب : أخرجى لهؤلاء ما كنت
تدخرين ! . . . وكان الحسين رضى الله عنه قد أراد بذلك ألا يخرج أولئك
المساكين ، أو يخرج شعورهم ، أو يمس كرامتهم ، فقبل دعوتهم أولاً ، ثم
أغدق عليهم ما عنده أخيراً ، ليعتبر هذه في مقابل تلك ، فليتعظ بذلك أولئك
الذين يتظاهرون أسوأ التظاهر بإحسانهم ، والذين يفتخرون بصدقاتهم ، مع أن
الحق يقول . « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى ، وَاللَّهُ
غَنِيٌّ حَلِيمٌ » ^(١) .

وكان الحسين رجلاً مسباحاً معطاء ، لا يستكثر ما يتفضل به مهما كان
عظيماً ، وكذلك شأن المطبوع على الجود ، المفطور على السباح والعطاء ، فقد

دخلت عليه ذات يوم جارية من جواريه ، وفي يدها بطاقة ريحان وزهر ،
فقدمتها إليه هديةً منها ، فسرَّ من صنعها ، وأراد أن يكافئها ، فلم يملك نفسه
أن قال لها : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى ! .

فاغتاضت جارية أخرى فقالت له : أنجيتك جارية يا سيدي بطاقة ريحان
فتعاقها ؟ .

فأجاب : كذلك أدبنا الله ، قال تبارك وتعالى : « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ
فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ^(١) » . وكان أحسن منها عتقها ! ! .

وإليكم موقفاً آخر من مواقف الحسين تروونه فيه نبيلاً يغفر الذنب ، ويعفو
عن الزلة ، ويستجيب لهواتف الجليل ، وتأسره الكلمة الطيبة ، فتنسيه غضبه
وألمه ، فقد وقع بينه وبين أخيه لأبيه محمد بن الحنفية خصومة أنشأت بينهما
هجراً ، فكتب محمد بن الحنفية إلى الحسين يقول :

« أما بعد ، فإن أباك رجل واحد ، هو علي بن أبي طالب ، لا تفضلني
فيه ولا أفضلك ، وأمي امرأة من بني حنيفة ، وأمك فاطمة الزهراء بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الدنيا بمثل أمي لكانت أمك خيراً
منها ، فإذا قرأت كتابي هذا فأقدم علي حتى ترضاني ، فإنك أحق بالفضل مني ،
والسلام » ! ! .

يشير بذلك إلى قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لمسلم
أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما
الذي يبدأ بالسلام » (أى أن الذي يسعى إلى الصلح أولاً هو الأفضل) .

فما كاد هذا الخطاب الوجيز يصل إلى الحسين حتى نسي غضبه ، وغفر
لأخيه ذنبه ، ولم يجلس حتى أتى أخاه محمد بن الحنفية فأرضاه وأكرمه ؛ وتلك
شيمة الأكرمين السمحاء « ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ! ! .

ومثل ذلك ما روى أنه وقع بين الحسين وأخيه الحسن ذات يوم كلام ،
ف قيل للحسين : ادخل على أخيك (لتسترضيه) فهو أكبر منك ! .

(١) سورة النساء آية ٨٦ .

فقال الحسين : إني سمعت جدى صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة ! . وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ! . فبلغ قوله أخاه الحسن ، فأتاه عاجلاً فأرضاه ! .

* * *

كم من رجال فينا يحتاجون أشد الاحتياج إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا الهدى الكريم . والإرشاد القويم ، ليأخذوا منه لأنفسهم رادعاً يردعها حينما يخلقون من الحبة قبة ، ويثيرون نيران الحفيظة أو البغضاء ، من جراء كلمة جافة ، أو تعبير شديد ، فإذا ما دعوا إلى خطة الصفاء والإخاء ، أعرضوا واستكبروا استكباراً ! .

هذا . ولقد كان الحسين بن علي واعظاً بليغاً ، أثرت عنه حكم في غاية من البلاغة والتأثير ، استمع إليه إذ يعظ فيقول :

« لا تتكلف ما لا تطيق . ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعد بما لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ، ولا تناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً ، .. ! »

وفي هذه الكلمات القصار وضع الحسين البليغ لكل مسلم دستور الخلق الكامل والعمل الصالح لحياة السعادة والهناء ! .

واستمع إليه إذ يحجب الناس في الإحسان إلى المحتاجين ومعاملتهم بالمعروف والحسن ، وينفرهم من لؤم النفس وشيها بالخير على أهله . فيقول : « اعللوا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملوا من تلك النعم فتعود نكماً ، واعلموا أن المعروف يكسب حمداً ويعقب أجراً فلورأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه رجلاً جميلاً يسر الناظرين ، ولورأيتم اللؤم رجلاً لرأيتموه قبيح المنظر ، تنفر منه القلوب ، وتغض دونه الأبصار ، ! »

* * *

ولا تحسبن الحسين يرسلها كلمة لا يلتزمها ، ولا يأخذ نفسه بحدودها ، كلا ، بل هو أول من ينفذ ذلك المبدأ ، ويرى أن الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ويعتقد أن قضاء الحاجات لأصحابها يساوى العبادة والقنوت ، فهذا رجل يأتي إلى الحسن يستعين به في حاجة ، فيجده معتكفا ، فينصرف إلى الحسين ، فيسارع الحسين إلى قضائها قائلا : « لقضاء حاجة في الله عز وجل أحب إليّ من اعتكاف شهر ! » .

تعلموا أيها الناس ، وإذا تعلمتم فانتفعوا بما تتعلمون ، وخذوا دروسَ الرجولة والمروءة ، والسماحة والجود ، من أولئك الغر الميامين ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وإذا أردتم أن تعبروا عن حبكم لرسولكم وأهله وصحابته ، فاجعلوا هذا الحب قدوة حسنة ، واتباعاً جميلاً ، فإن المرء على دين خليله ، وما من حبيب إلا وهو متشبه بخلال من يحب ! .

رضى الله عن الحسين ، فقد كان رجلاً عظيماً ، وبطلاً كريماً ، وعنواناً على الصفوة المصطفاة ، من أوائل السابقين في الإسلام ، فعليه من ربه السلام ! .

بطولة مروءة

من قصص التاريخ الاسلامي

شاع بين الناس خلق الخيانة والغدر ، فالصديق يخون صديقه ، ويكيد له في الظلام ، ويوقع به من وراء ستار ، وربما لا تقتصر خيائته على المال أو الجاه ، بل قد يخونه في عرضه أو شرفه ، والتاجر يخون من يعامله ، فيغشه في السلعة ، ويقبل منه الربح الفاحش الحرام ، والشريك يخون شريكه مع أن الله ثالثهما ما لم يخونا . فإذا خانا خرجت يد الله ، وجاءت يد الشيطان ، والموظف يخون واجبه ، فهو لا يقوم بما وكل إليه من أعمال . ولا يتقى الله فيما وضع بين يديه من أمانات ، بل كلهم همه البحث عن الترقية أو العلاوة أو الراحة .

وهناك نوع جديد من الخيانة ، لعله أخبث أنواعها وأدخلها في باب الإجرام والفحشاء ، ذلك النوع هو أن يتطلع الصديق إلى زوجة صديقه الذي ائتمنه ، أو جاره الذي اطمأن إليه ، أو مواطنه الذي اتصل به ، فيعجبه جمالها فيتغافل عن صوت الضمير ، ويخون عهد الشرف ، ويغدر بذمة الصداقة والجوار ، ويذهب فينصب شباكه ويدس دسائسه ، حتى يوقع بين الزوج وزوجته ما يفرق بينهما ، ثم يقبل بعد ذلك إقبال الثعلب الماكر فيلهو بها أو يعيش معها ! .

ولا تحسبن أن هذه الجريمة نادرة الوقوع ، بل هي شائعة هنا وهناك ، نقرأ أخبارها بين الحين والحين ، في المآسي والمخازي والفضائح التي تنشرها الصحف والمجلات عن الأسر والعائلات ! .

وهناك في طيات التاريخ الإسلامي قصة تصلح عظة وعبرة في هذا المقام^(١) . إذ تهض شاهداً ببنأ على صدق المثل القائل : « من صنع كيدا لأخيه وقع فيه » !

(١) إنما يعني هنا ما في القصة من عظة وعبرة ، ولابحث التاريخي مجال آخر .

وهأنذا أجلوها لأذكر بها ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، ولأعرض
صفحة مطوية من قصصنا التاريخية تصل الخلف المتوثب بأسلافه الغر
الميامين :

سهر يزيد بن معاوية ذات ليلة من الليالي ، وعنده وصيف اسمه (رقيق)
من حاشية معاوية المقرئين . فقال يزيد « يعنى أباه معاوية : أدام الله بقاء أمير
المؤمنين وعافاه ، لقد كنت أعرف من عنايته بي ، وجميل نظره إلى ما يمنحني
من طلب أمنية أو رجاء شيء ، ولكنني أضاعني أخيراً ، وترك النظر في شأني ،
مع ما أعلم من هيتي له وخشيتي منه ، فإله يجزيه عني بإحسانه ، ويغفرله ما اجترح
من سيئاته ! .

فقال الوصيف : وماذا أهمل أمير المؤمنين من حقوقك ؟ إنك تعرف
تفضيله لك ، وحرصه عليك ، فاذكر بلاءه واشكر حباه^(١) فإنك لا تبلغ
شكره إلا بعون الله ! . فأتى يزيد إطرارق الحزين النادم . فقام الوصيف
ودخل على معاوية ليلاً — وكان غير محجوب عنه — وأخبره بما قال يزيد .
فتأثر معاوية وأرسل إلى ابنه ليزيل شكواه ، فلما دخل عليه قال له : يا يزيد !
ما الذي أضعنا من أمرك ، وحسن النظر لك حتى قلت ما قلت ، مع أنك
تعرف رحمتي بك ، ونظري في الأشياء التي تصلحك قبل أن تخطر ببالك فقد
قدمتك على الناس كلهم . ووليتك إماماً على أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم
فهلا شكرت النعمة ، وعرفت حق الأبوة ؟

قال يزيد وقد خنقه الحياء وشمته العرق : ما جمحت فضلك ، ولا أنكرت
أبوتك . وإنى لأجد فيك الراعي الشفيق والوالد الرحيم ، ولكنك تعلم أن
أفضل ما يرزق الإنسان بعد الإسلام هو الزوجة الصالحة ، وقد تحدث الناس
جميعهم عن جمال « زينب بنت إسحاق » التي سطع جمالها وشاع ، فأحببتها
ورغبت في زواجها ، وظننت أنك ستسارع إلى جمع شملي بشملها ، فما زلت

(١) الحباه : بمعنى السكرم والإعطاء .

أنتظر ذلك حتى تزوجها عبد الله بن سلام ، وحاولت السلوان أو التصبر
فما استطعت ، ولما عيل صبرى ، وعظم ذلك فى صدرى بحت بسرى ! .

فقال له معاوية : مهلا يا يزيد ! فأجابه متحسراً : وعلام تأمرنى بالمهل
وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين حباك ومروءتك وتقاك ؟ فأجابه:
قد يغلب الهوى على الصبر والحجا ! فطمأنه معاوية بأنه سيحتال له فى زواجها
مهما كان الثمن !



وأخذ معاوية الداهية الخبير ينصب الشرك المحكم ، لينال صيده المشتى ؛
إذ كانت زينب بنت إسحاق مثلاً فريداً بين أهل زمانها فى الجمال والكمال
والشرف وكثرة المال ؛ وكان زوجها عبد الله بن سلام مقرباً إلى معاوية ، وكان
واليا من قبله على العراق ، فكتب إليه معاوية : أن أقبل حين تنتظر فى كتابى
هذا الأمر حظك فيه كامل ! .

فلما حضر عنده أنزله معاوية منزل العطف والإكرام ، ثم قال لأبى هريرة
وأبى الدرداء وكانا عنده بالشام : إن الله أوجب على عباده شكر النعم ، وقد
حبانى منها عز وجل أعز الشرف ، إذ جعلنى أمينا فى بلاده وحاكما على عباده ،
ليبلونى أشكر آلاءه أم أكفرها ، وإن أول ما ينبغى للمرء أن يعنى به أمريته
وأهله ، وقد بلغت لى ابنة أريد تزويجها بمن يكون لها كفئا ونظيرا ، وقد رضيت
لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته ، فاذكرا له ذلك عنى ، وقد كنت
جعلت لى ابنتى السورى فى زواجها ، ولكنى أرجو ألا تخرج عن رأى إن
شاء الله ! .

فحمد أبو هريرة وأبو الدرداء لمعاوية هذا السلوك عن نية خاصة ، وقاما
ليخبرا عبد الله بن سلام بذلك الشرف الجديد .. وأراد معاوية أن يتم نصب
الفخ المحكم فدخل على ابنته وقال لها : إذا جاءك أبو هريرة وأبو الدرداء وخاطباك
فى تزويجك بعبد الله بن سلام فقولى لهما : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، ولكنى

متزوج بزینب بنت إسحاق ، وأنا أخشى غیرة النساء ، فإن شاء زواجی فلیطلقها قبل ذلك . . .

فلما جاء أبو هريرة وأبو الدرداء إلى عبد الله وأخبراه بما یرید أمير المؤمنين فرح واعتبط ، وحمد له هذا التشریف ، وطلب إليهما أن یعجلا بالعودة إلى معاوية خاطبين ففعلا ، فقال لهما معاوية : ادخلا على ابنتی وانظرا ما تقول . فلما دخلا إليها أجابت بما عليها إياه أبوها ، فعادا إلى عبد الله وأخبراه ، فلما رأى أن الحائل بينه وبين بنت معاوية الحاكم هو زوجته طلقتها في مجلسه ، وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين مرة ثانية ، فأعلمها معاوية بما كان من فراق عبد الله لزوجته ، فتظاهر معاوية بالكراهية لذلك والغضب منه ، وقال : ولم طلقها ؟ . إني ما أحب ذلك ! . . . فانصرفا في سلامة الله ثم عودا إلینا بعد حين لتأخذا إن شاء الله رضانا بذلك ! . . . وأرسل معاوية إلى ابنه يزيد یخبره بما كان من طلاق زینب بنت إسحاق التي سرحها زوجها بلا ذنب أو جريرة ، فبلغ السرور بيزيد مبلغه .

ثم ذهب أبو هريرة وأبو الدرداء إلى بنت معاوية الأمير وطلبا منها رأيها ، فقالت كما عليها أبوها : إن الزواج أمر خطير ، فتركاني قليلا كي أتدبر أمری ، وأسأل الناس عن حال زوجی ، ولا داعی للتعجيل ، فإن الله ولى التدبير ، وسأعلمكما بما یأتین من الله فی أمره ، ولا قوة إلا بالله ! . فلما أعلمها عبد الله بذلك تمثل وقال :

فإن يك صدر هذا اليوم ولی فإن غدا لناظره قريب !

* * *

وشاع خبر المكيدة بين الناس ، وعرفوا أن معاوية الداهية قد خدع عبد الله حتى طلق زوجته منه ليأخذها ليزيد ابنه ، وتحذثوا بذلك ، فاستحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ليفرغا من أمره ، فذهبا إلى ابنة معاوية ، وقد أوصاها بأن تجيب بالرفض والامتناع ، فقالت لهما : لقد استشرت فيه الناس ففهم الناهی عنه ، ومنهم الناصح به ، وقد كرهت والله اختلافهم ، فرأيت الابتعاد عنه ! .

وما كاد هذا الرد الموثس يصل إلى عبد الله بن سلام حتى علم أنه قد خدع فاشتد به الهم ، وبلغ منه الحزن مبلغه ، ولكنه عاد فانتبه ، وعلم أنه لا راد لما أراد الله ، ولا مغير لقضائه أو قدره ، فحاول السلوان ! . إن كان مثله أن يسلو ! .

ومرت الأيام يتبع بعضها بعضاً ، والناس يتناقلون هذه القصة في الأمصار ويتحدثون بها في الأسفار ، ويكيلون لمعاوية التقريع واللوم ، وهو يقول : والله ما خدعته ! . حتى انتهت عدة زينب ، فاستدعى معاوية أبا الدرداء وكلفه أن يتوجه إلى العراق كي يخطب زينب لابنه يزيد ، فخرج أبو الدرداء حتى قدم العراق ، وبها يومئذ الحسين بن علي سيد أهلها فقها وحالا وجودا رضى الله عنه ، فقال أبو الدرداء في نفسه : والله إن أول ما يجب على ذى الحجا ، والمعرفة والتقى ، هو أن أبدأ فأزور ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، فلمست بناظر في شيء قبل الذهاب إليه والتسليم عليه ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ثم أفعل بعد ذلك ما جئت له . . .

فسار حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه ، فصاحه إجلالا له ، ومعرفة لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعه من الإسلام ، ثم قال الحسين : مرحباً بصاحب رسول الله وجليسه ! . يا أبا الدرداء ، لقد أحدثت لي رؤيتك شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوقدت مطلقاً أحزاني عليه ، فإني لم أر منذ فارقتك أحداً كان له جليساً ، وإليه حبيباً ، إلا هملت عيناى ، وتحقرت كبدى أسى عليه وصباية إليه ، والله إنى لذو حرص عليك ، ومشوق إليك ! . . . فقال أبو الدرداء : جزى الله حاجة أقدمتنا عليك ، وجمعتنا بك خيراً ، لقد وجهنى معاوية إلى هنا كي أخطب لابنه يزيد زينب بنت إسحاق ! .

فصمت الحسين هنيهة مفكراً ثم قال : يا أبا الدرداء ، لقد كنتُ فسكرت في زواجها ، والإرسال إليها عقب انقضاء عدتها ، ولم يمنعنى من ذلك إلى الآن إلا استشارة مثلك ، وقد أتى الله بك إلى ، فإن شئت فاطلب — رحمك الله — لى

وله ، ولتخرجه من شامت ، وإنها لأمانة في عنقك ! . فقال أبو الدرداء :
جباً وكرامة ، أفعل إن شاء الله ! :

ثم توجه أبو الدرداء إلى زينب فقال لها : أيتها المرأة ، إن الله خلق
الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدراً ، ولكل قدر سبباً ،
وقد كان ما كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، وقد خطبك أمير هذه
الامة ، وابن الملك ، وولي عهده ، والخليفة من بعده : يزيد بن معاوية ، كما
خطبك ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن أول من آمن به من
أمته^(١) ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وأنت تعرفين مكانة كل منهما ،
فاختاري منهما من تشائين . .

فقلت : يا أبا الدرداء ، لو جاءني هذا الأمر وأنت بعيد عني لجنيتك
مستشيرة ، فكيف وقد سعت إلى ؟ . فاخترلي أنت أرضاهما لديك ، والله
شهيد عليك ! . فقال : أي بذية ، ابن بنت رسول الله أحب إلي وأرضاهما
عندي ، والله أعلم بخيرهما لك ، وقد كنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
واضعاً شفتيه على شفتي الحسين ، فضعى شفتيك حيث وضعهما رسول الله ،
فقلت بلا تردد : قد اخترته ورضيته ! .

ولم تمض أيام حتى عقد عليها الحسين بن علي ، وساق إليها مهراً عظيماً ،
ولقى معاوية جزاء خديعته ، فضاع منه الصيد الذي نصب الشرك لإيقاعه
فيه ، وذلك جزاء المكر والإيقاع ! .



ولكن القصة لا تزال فيها بقية ، هي أقوى عظة وأشد تأثيراً ، وأدعى
لتحريك عواطف الشهامة والتبل في نفس كل ذي قلب وروح . .

(١) يقصد أباه علياً ، ومراده أن علياً هو أول من أسلم من الفتيان ، لأن خديجة بانفاق
الآراء هي أول من أسلم ، ولم يسبقها رجل ولا امرأة ، ولا صغير ولا صغيرة .

كان عبد الله بن سلام قد ترك عند زوجته بدرات مملوءة دراهم هي أعظم ماله ، وأحبه إليه ، فلما عزله معاوية ، وقطع معونته عنه بعد تلك الحادثة ، وأصابه من الفقر ما أصابه ، ذكر ذلك المال ، وأراد أن يسترده ، ولكنه كان يخشى أن تنكره زينب لسوء معاملته لها ، إذ طلقها بغير شيء أنكره منها فقدم العراق ، ولقي الحسين بن علي ، وسلم عليه ، ثم قال له : لقد كنت استودعت زوجتي قبل فراقها مالا عظيما ، وكان الذي كان ، والله ما أنكرت منها في طول صحبتها كبيرا ولا قليلا ، ولا أظن بها إلا ظنا جميلا ، فما ترد هذا المال إلى إن شاءت . .

فذكر الحسين لزينب ذلك فقالت : صدق والله ، لقد استودعني مالا لا يزال مطبوعا بطابعه ، ما أخذ منه شيء ، وها هو ذا فادعه إليه ! . فقال الحسين : بل يدخل عليك لتسلميه إليه كما سلمه إليك ! . ثم ذهب إلى عبد الله وقال له : قم ، وادخل عليها لتستوفي مالك . ففجل وقال : هلا أمرت بإحضاره إلى ! . فقال الحسين : لا بد من دخولك عليها حتى تسلمك المال ، وتبرئ منه ذمتها . . فدخل . .

وهنا التقى الحبيبان القديمان ، ورجع الماضي كله بمسراته ومباهجه ، ومرت الذكريات الجميلة تباعا على خاطر الزوجين المفترقين ، واحتشدت العواطف من الندم على الذنب ، والوفاء للعشير . . . وهنا رقت القلوب ، وتلاقت الأرواح ، فإذا عبد الله يبكي بكاء النادم الذي فرط في أعز ما يملك ، وأغلى ما يعرف في دنياه ، وإذا زينب تبكي بكاء الزوجة المسكينة حينما ترى زوجها الذي ذاقت معه حلو العيش ، وعرفت بجانبه طيب المقام ، ومع ذلك طلقها بلا ذنب منها . .

وإذا بعبد الله يأخذ من الدر حشوات يلقيها بين يديها كما يفعل الياثس القانط ، ويقول وهو يبكي : خذي ، فهذا والله قليل مني إليك ، فوالله ما رأيت منك إلا خيرا ، ولست الماضي يعود ، ولكن هيهات ! . وإذا ببيكاتهاما يعلو ويرتفع ، وإذا بالحسين يدخل عليهما وقد سمع نحيبهما ، وعرف أمرهما ، وورق لحاهما ، فيقول : يا عبد الله ، أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهم إنك تعلم

أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لزوجها الذى
طلقتها ، قاصدا بذلك وجهك وثوابك . فاكْتُبْ لى على ذلك الأجر ، وأجزل
لى عاينه الذخر ، إنك على كل شىء قدير ١١ .

وبعد قليل عادت زينب ^(١) إلى زوجها السابق عبد الله بن سلام ، وأبى
الحسين أن يأخذ قليلا أو كثيرا مما ساق إليها فى مهرها ، على الرغم من إلحاحها
وإلحاح زوجها عليه فى أن يقبل ذلك ، واكتفى بهذه اللذة الروحية التى يشعر
بها النبيل حينما يكبت طغيان الطاغى ، ويرد الحق إلى نصابه ، وينصف المظلوم
ويجمع بين الأليف وأليفه باسم الله وعلى ملة الصادق رسول الله صلى الله عليه
وسلم . . ولا عجب فهو سائيل بنت محمد ، وفرع هذه الشجرة الزكية التى يقول
فيها الحق عز من قائل : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ^(٢) . صدق الله العظيم .

(١) فى كتاب « الإمامة والسياسة » يذكر اسمها « أريزب بنت إسحاق » وفى بعض النسخ
الأخرى « زينب بنت إسحاق » .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣

بطولة الفروسية في الإسلام

لقد طبع الإسلام الشباب على حياة الفروسية وأخلاق الفتوة... والفروسية في الأصل هي المهارة في ركوب الخيل والخبرة بشئونها، ولكن معناها العرفي اتسع حتى صار يشمل طائفة من الصفات في الجسم والعقل والنفس، وتكمل الفروسية بأمور، هي: القوة في الجسم، والصحة في المعرفة، والعمق في الفهم، والركة في الحس، والظهر في النفس، والحذق في التصرف، والاطمئنان عند الغرم، والتواضع عند الغنم، والثقة بالخالق، والخدمة للخلوق.

وقد رمز القرآن الكريم إلى أصول هذه الأمور حينما قال يصف النبي والمؤمنين معه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوَارَةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَوَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (١).

فهم أشداء أقوياء بفتوتهم وعدتهم، يصدون الكافرين عن الضلال والطغيان، وهم رحماء بينهم، يعاملون بمكارم الأخلاق من يستحقها. والرحمة صفة تقتضي رقة في الحس، وأدباً في النفس، وتراهم راكعين ساجدين متعبدين، يصقلون أرواحهم بهذه الصلاة، وتلك المناجاة مع الله، وهم يرجون الرضا والثواب من الخالق الوهاب، وترى ملامح التقوى على وجوههم، لأن طهارة الداخل تُفيض أنوارها على الظاهر، فيبدو حسناً رائماً، وهم كالزراع إذا نما، وقوى واستوى، وأعجب الزراع بكثرته وقوته وجمال منظره، وهم مؤمنون محسنون، يعملون الصالحات، ويحتملون

السيئات ، فيحمد الناس لهم طباعهم وفعالهم ، ويجزيهم ربهم بالخير العليم والأجر العظيم .

فهذه الصورة التي رسمها القرآن لمحمد وصحبه ، تتضمن تحريضاً على العناية بتربية النفس تربية قوية ، فيها من مبادئ الفروسية صفات القوة والتماسك ، والرحمة والتواضع ، والثقة والإيمان ، والتزام الظهر والعمل الصالح والخلق الكريم .

وحينما قال الله لرسوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ^(١) » أراد من هؤلاء المؤمنين أن يحققوا في أنفسهم ما يجعلهم أهلاً لتلك الغلبة الفذة والانتصار الفريد ، من التربية العسكرية ، والإقدام على التضحية ، وإتقان الجهاد ، والثبات في مواطن اليأس ، والتمسك بمبادئ الفروسية الإسلامية التي لا يذل صاحبها ولا يخزى ، وهو في الوقت نفسه لا يضل ولا يطنى ..

ولقد خص الإسلام فروسية الشباب بمزيد من عنايته ، فحث أبناءه على تعلم السباحة ، والرمية ، وركوب الخيل ، وغير ذلك من ألوان الفتوة الرياضية ، وشرع السباق في العدو ، وبين الفرسان على الخيل أو الإبل ، واشترك النبي صلوات الله وسلامه عليه في هذا ، حيث تكرر منه مسابقته لزوجته السيدة عائشة ، ووضع الرسول لهذه المسابقات نظماً وتفصيلاً ، وعود صحابته التواضع عند النصر ، مع الاستعداد للتحدى ، فعن سلمة بن الأكوع الصحابي قال :

بينما نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبداً ، فجعل يقول :
ألا مسابق إلى المدينة ؟ هل من مسابق ؟ .

فقلت : أما تكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ .

قال : نعم ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ .

قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل .
فقال : إن شئت .

فسبقته إلى المدينة ا .

ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه القدوة العليا لكل
ففي فارس ، فقد كان سيد الفتيان وإمام الفرسان . . . كان قوى البدن ، مفتول
العصل ، نشيط الحركة . يقول أبو هريرة : « ما رأيت أحدا أسرع من رسول
الله صلى الله عليه وسلم في مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا ،
وهو غير مكترث . »

وكان جريئا مقداما . . . فزع أهل المدينة ليلة من صباح سمعوه ، يفرجوا
يستطلعون الأنبا ، فإذا هم يجدون رسول الله عليه صلوات الله وسلامه راكبا
جوادا عاريا لا في طلحة ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وعرف جليلة الأمر ، ورجع
تطمئنهم قائلا : لن تراعوا ا .

وصارع محمد أشد العرب بأسا ، كركانة بن عبد يزيد ، وكعدة بن أسيد ؛ ففاز
وغلب دون مباهاة أو غفر ، وثبت في مواطن البلاء ، حتى احتسب به فرسان
قومه دون طغيان أو كبرياء ، وهو مع هذا — كما يقول القرآن الكريم —
رءوف رحيم .

وقد علم صحابته العناية بالخيال ، لأنها من وسائل الفروسية ، وقال : « الخيل
معتود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

والقرآن يركي هذه العناية حين يقسم بالخيال الجارية المجاهدة ، المغيرة على
باطل الكفر ، المثيرة تراب الهزيمة على الشرك ، فيقول : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ،
فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا ، فَوسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ،
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ^(١) » .

وعلم أتباعه حياة الإعداد والاستعداد ؛ والتأهب للنوازل والملمات بالسلاح

(١) سورة العاديات الآيات ١ — ٦ .

والعتاد؛ فقال : « تُعْرَضُ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ كُلِّ اثْنَيْنِ وَكُلِّ خَمِيسٍ ؛ فَمَنْ زَادَ فِي سِلَاحِهِ زَيْدٌ فِي حَسَنَاتِهِ ، وَمَنْ نَقَصَ مِنْ سِلَاحِهِ نَقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ » .

والقرآن يركي هذا بقوله الجليل : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (١) .

وإعداد المستطاع من القوة هو شعار الفرسان ؛ ومنهج الكلمة من الفتيان .



إن الفروسية الكاملة معناها الاستقامة على طريق القوة والعدل والخير ؛ وهذا هو منهج الإسلام في الحياة .

يقول الله تعالى مخاطباً عباده المسلمين : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٢) .

ويقول لهم بعد أن يوصيهم بمحامد الأعمال ؛ ومكارم الاخلاق : « وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمَنْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٣) .

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٣) سورة الأسم آية ١٥٣ .

بطولة الثبات على المبدأ

الثبات على المبدأ لون رائع من ألوان الإيمان بالعقيدة ، واليقين بالفكرة ؛ والإنسان إذا تحلى بهذه الفضيلة استهان بقاء المصاعب ومعاناة الشدائد ، بل قد يجد في الألم لذة ، وفي التعب راحة ، ما دام يرضى ضميره ، ويصون عقيدته ومبدأه .

وقد يعيش في الدنيا فقيراً ويموت فقيراً ، ولكن يد الله التي لا تغلب ترفع له ذكراً ، وتبقى له أثراً ، وتجعل سيرته شمساً لا يخفيها سحب ، ولا يطمسها حجاب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

من أمثلة أولئك الثابتين على مبادئهم وعقائدهم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، فهو رجل فقير قليل ، يقبل وحده إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، من مكان بعيد ، فيسلم بين يديه بلا تردد ، والكفر شامخ البنيان متطاوّل الأركان .

وينصحه الرسول بأن يعود إلى قومه ، ويبشر بالإسلام سرا بينهم ، حتى يأتي أوان الإعلان ، فيأبى أبو ذر أن يكتم نوراً أشرق في قلبه ، بل يصرخ بكلمة التوحيد ودعاء السماء بين شياطين الوثنية وعمالقة الإشرار ، فيتألبون عليه يضربونه ويعذبونه ، فلا يفتنه ذلك عن دينه ، بل يعاود الهتاف بكلمة الإيمان ، فيعاوده التنكيل والعذاب ، فيرضى كأنه يسقى الرحيق من الشراب .

ثم يعود أبو ذر إلى قبيلته غفار ، فيظل يدعو ويرشد ، حتى يسلم بسببه نصفها ، ويسعى النصف الآخر ليسلم على يدى الرسول ، ويظل أبو ذر مسلماً عاملاً ، ومجاهداً ناصحاً لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، حتى يشهد عهد عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فيرى أبو ذر المال وقد أخذ يتدفق في

جيوب الناس، والترف وقد بدأ يدب فيهم ديب الداء في الأعضاء، والحرص على الشهوات وقد أخذ يغالب الحرص على الشهادة في المواقف والغزوات، فهتف بدعوته التكافلية الإسلامية، التي تحارب كنز المال، ومنع حقه عن الفقراء والمحتاجين وأخذ يلح في دعوته ويبالغ فيها.

وجعل يردد في الجامع والمحافل قول ربه عز من قائل : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَكْوَىٰ بِهِمَا جِبَاهُهُمْ وَجُفُوهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ^(١) » .

وظل يدعو إلى فكرته الجريئة الحازمة بين عنت المعارضين، وتعويق المجادلين، وإيقاع المغرضين، حتى سعى به السعاة إلى عثمان، فأمر بإخراجه إلى قرية « الربرة »، على مسافة من المدينة لتقطع صلته بالناس، وأصدر عثمان أمراً بالآل يتبعه أو يشيعه أحد .

وتخوف الناس فأطاعوا، ولكن على بن أبي طالب وأخاه ولديه وعمار ابن ياسر خرجوا يودعونه، وأراد على أن يثبت فؤاده أبي ذر، وأن يقوى عماده، فقال له تلك النصيحة الداعية إلى الاعتزاز بالمبدأ، والثبت على العقيدة، والإخلاص لله تعالى :

« يا أبا ذر، إنك غضبت لله فارح من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الراجح غداً، والأكثر محسداً، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقا ثم اتق الله لجميل الله له منهما مخرجا . لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحببوك، ولو قرضت منها لآمنوك، ! . وهناك في قرية « الربرة » لاقى أبو ذر آلام العزلة والوحدة، ومتاعب الفقر والحاجة، وما زالت الأيام تلح عليه بكسلها، وهو لها مجاهد، وعليها

صابر ، حتى أسلم روحه الطاهرة على قارعة الطريق العام ، دون أن يجد بجواره من أصفياه أو أحبابه من يتولى أمره ، أو يهيء جدته ، ودون أن يستطيع أهله القيام بتشيعه ودفنه ، حتى مر عليهم جماعة فيهم عبد الله بن مسعود ، وكانوا على سفر ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه .

وخيّل للذين تزلزلت قواعدهم وشحهم وكنزهم من دعوة أبي ذر الجريئة أن هذا هو أن له ، ينال من شخصيته أو مكانته عند الله أو عند الناس .

ولكن طاشت أحلامهم ، فأبو ذر هو الذي قال فيه سيد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم : « ما أظلت الغبراء ، ولا أقلت الخضراء ، أصدق طهجة ، ولا أوفى من أبي ذر » .

وقال فيه أيضا : « إنه يسعى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده » .



لقد تختلف قليلا أو كثيرا مع أبي ذر في فكرته أو طريقته ، وقد تقول : لو أنه طامن من غلوائه هنا ، أو خفف من حدته هناك ، ولكنك لا تستطيع أبدا أن تقول إنه كان غير ثابت على مبدئه ، أو غير مستمسك بعقيدته ورأيه ، فإنه يعتقد هذا الرأي ، ويبشر به ويلج فيه ، ويختلف معه في الرأي هذا ، ويعارضه ذاك ، وينتقده ذلك ، ولكن أبا ذر يمشي على طريقته ، لا يلتوى ولا يتراجع ، ولا يتناقض مع نفسه فيما بين تفكيره وواقعه ، فإذا كان قد نادى بمحاربة الكثر ، ومقاومة السكّانين ، فقد عاش لا يملك سبداً ولا لبدّاً ، ولا يطوى من متاع الدنيا قليلا ولا كثيرا ، حتى يقول عنه الإمام النووي : « كان زاهدا متقللا من الدنيا ، وكان مذهبه أنه يحرم على الإنسان ادخار ما زاد على حاجته ، وكان قوالا بالحق » .

وهكذا مضى أبو ذر إلى ربه ، بعد أن خلد في التاريخ مثلاً حياً من أمثلة

المقاومة للقارونية الكائزة التي تجمع وتكنز وتشح ، وسيمر بالدنيا جبارون وعبارون ومتسيطرون ، وسيكسبون ويكسبون ، ويحتالون لتخليد ذكراهم بما يحتالون ، ثم يرحلون ، فتسحقهم أقدام الإهمال والنسيان ، لأن عظمتهم الكاذبة قامت على الظلم والطغيان ، والاستبداد الأثيم بحقوق الإنسان .

ثم تبقى ذكرى الهداة الفقراء ، عائرة باهرة في سائر الأوقات والأرجاء ، وقل سلام على المؤمنين الموقنين ، الصادقين المخلصين ، الذين يقولون ويعملون ، وبالحق ينطقون ، وعلى مبادئهم يثبتون ، «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» .



بطولة ثالثة رابعة العدوية

رابعة العدوية !.. ياله من اسم شغل أذهان الباحثين والصوفيين والمحبين !..
وياله من اسم تحيط به غلايل من الهيبة والإبهام والغموض !.. وياله من
اسم اختلف الناس في أمر صاحبتة ، فرفعها بعضهم إلى درجة « عليا » ، ونزل
بها آخرون إلى دركة « سفلى » ، وقد يكون الإسراف عند هؤلاء وهؤلاء ..
وما أكثر الاختلاف حول رابعة وحياتها وتاريخها !.

ما يكاد اسم رابعة يتردد على الأفواه حتى تتردد تلك الآيات منسوبة
إليها تخاطب ربها عز وجل :

فليتك تحلو والحياة مريرةً ولينك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الود فالكل هينٌ وكلّ الذى فوق التراب تراب

ويعتقد الناس أن هذه الآيات من شعر رابعة ، مع أنها من شعر أبى فراس
الخداني الشاعر المشهور ، من قصيدة يعاتب فيها ابن عمه سيف الدولة الخداني ،
ومطلعها قوله :

أما لجليل عندكن ثواب ولا لمسى عندكن متاب ؟

والناس يقولون إن والد رابعة يسمى « إسماعيل » ، وهم بهذا يخلطون بين
رابعة العدوية ورابعة الشامية ، فالأخيرة هي بنت إسماعيل لا الأولى ، وبعض
الكاتبين عن رابعة العدوية ينسب إليها العبارة التالية : « ما سمعت الأذان
إلا ذكرت منادى يوم القيامة ، وما رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ،
وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر » . ولكن الشعراني في كتابه « طبقات

الصوفية ، ينص على أن هذه العبارة لرابعة بنت إسماعيل الشامية ، وليست لرابعة العدوية ١ .

وهكذا نرى الكثير من الاختلاف أو الاضطراب في الحديث عن رابعة العدوية ، ولعل الغموض الذي صحب حياتها نفسها كان سببا في هذا الغموض الذي يكتنف الحديث عنها والترجمة لها في كتب السابقين واللاحقين .



ولقد شغلت رابعة العدوية كثيراً من الكتاب والباحثين ، فتحدثوا عنها ، وترجموها لها ، وألفوا فيها الكتب . . كتب عنها في اللغات الأجنبية أمثال ما سينيون ، وفيكلسون ، ومارجريت سميث .

وكتب عنها في العربية فريد الدين العطار ، وعبد الرحمن بدوي ، ووداد سكاكيني ، وطه عبد الباقي سرور ، ومحمد عطية خميس ، وغيرهم ، كما جاءت عنها أخبار متناثرة في كثير من كتب الأدب ، والأخلاق ، والتصوف ، والتاريخ . وقد وصفها الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » بأنها من نساك البصرة وزهادها^(١) . كما ذكرها في كتابه « الحيوان » أكثر من مرة ؛ ويروى عنها مثلاً الخبر التالي :

قيل لرابعة القيسية : لو أذنت لنا كلنا قومك فجمعوا لك ثمن خادم ، وكان لك في ذلك مرفق ، وكفتك الخدمة ، وتفرغت للعبادة ١ .

فقلت . والله ، إني لاستحي أن أسأل الدنيا بمن يملك الدنيا ، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكها^(٢) ؟ .

« ورابعة » هذه تسمى رابعة القيسية العدوية البصرية ، وسميت بالقيسية لأنها من بطن من بطون قبيلة قيس ، وسميت بالعدوية لأن أسرتها من بني عدوة ،

(١) انظر الجزء الأول ، ص ١١٦ .

(٢) الجزء الخامس ، ص ٥٨٩ . نقول إني أستحي أن أسأل الله فكيف أسأل الناس ؟

وقيل لأنها كانت تشتغل « بتعدية » الناس في قاربها ، وكلمة « العدوية » مختصرة من كلمة « المعداوية » .

ولا أميل إلى هذا الرأي بدليل أن هناك امرأة بصرية عابدة ثقة تُلقب أيضاً بالعدوية ، ولم تسكن مشغلة بهذه الوظيفة ، وهذه المرأة هي « معاذة العدوية » ، وهي أم الصبياء معاذة بنت عبد الله العدوية البصرية ، زوجة « صلة ابن أشيم » ، الذي كان من نساك البصرة وزهادها أيضاً ، وقد روت معاذة عن عائشة وعلى وهشام بن عامر ، وروى عنها أبو قلابة وقنادة وأيوب وعاصم الأحول ، وكانت من العابدات القانتات الصالحات ، وقد ذكرها كثير من المؤرخين . .

وسميت رابعة العدوية بالبصرية ، لأنها ولدت في البصرة حوالي سنة مائة من الهجرة ، وعاشت فيها ردها من الزمن .

وكان أبواها فقيرين ، يعيشان في كوخ بطرف من أطراف مدينة البصرة العراقية التي كانت لها يومئذ شهرة فائقة في العلم والأدب ، كما كانت لها شهرة فائقة أيضاً في اللهو والترف والغناء ، وكان الناس يسمون هذا الكوخ « كوخ العابد » وذلك لتقوى الوالد وإيمانه ، وإنه لمن العجيب أن تجد في البصرة هذا التقى الظاهر بجوار اللهو السافر ، ولكن لا عَجَبَ ، فقد كانت البصرة تنموج بتيارات متضاربة . فتيارُ يأتيها من الجزيرة يدعوها إلى الهدى والتقوى والصلاح ، وتيار يأتيها من فارس ، يحرضها على التمتع واللهو والطرب ، وتيار من بينهما يحاول أن يقرب بين هذا وذاك ، ولكن هيهات ! .

وكان لرابعة العدوية ثلاث أخوات بنات سبقنها إلى الحياة ، وجاءت هي بعد الثلاث ، وأبواها يشكون كَنَبَ الفقر وشدة الحياة ، فسمياها رابعة ، لأنها كانت الرابعة في الميلاد .

وقد حزن أبوها لمجيئها وهو في هذا الفقر المدقع ، ولكنه — كما قيل — رأى النبي صلوات الله وسلامه عليه في المنام ، وسمعه يقول له : « لا تحزن ،

فهذه الوليدة سيدة جليلة ، وإن سبعين من أمتى ليرجون شفاعتها ، وأمره النبي
في المنام — كما تقول الرواية — بالتوجه إلى عيسى زادان وإلى البصرة ، وأمره
أن يخبره ببعض شئونه الخاصة المستورة ، ثم يطلب منه مالا ، وفعل الوالد ،
وعجب عيسى ، واحتفل بالوالد ، وأعطاه أربعمائة دينار !



وكانت رابعة منذ صغرها فتاة ليبية ذكية عاقلة ، متدينة متعبدة متهجدة ،
وكانت كثيرة الهم والحزن ، طويلة التفكير ، الشرود ، وكانت منطوية على
نفسها ، عازقة عن الحياة ، قليلة الكلام .

وكانت تخاف أكل الحرام ، وقالت لأبيها : « يا أبت ، لست أجعلك في
حلٍّ من حرام تطعمنيه » .

فقال لها متعجباً ومختبراً : « رأيت يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً ؟ » .
فأجابته : نصبر يا أباي في الدنيا على الجوع ، خير من أن نصبر على النار !
ولقد عنيت رابعة من صغرها بحفظ القرآن الكريم وترتيله ، وكلما حفظت
سورة من سوره أخذت تكررهما وتعيدها في ترتيل وتجويد ، مع الخشوع
وتدفق الدموع .

وكان وجود أبيها إلى جوارها يمكنها من هذا العكوف الكريم على القرآن
المجيد : حفظاً وتلاوة وتفهما ، إذ كان الوالد يكفيها شئون الحياة ، ويهيئ لها
ضروريات العيش ، ولكن الأقدار العليمة الحكيمة لم تتركها في هذه الحياة
الهادئة ، فأت أبوها وهي صبية ناشئة ، ثم لحقت أمها بأبيها .

وبقيت رابعة يتيمة لطيفة مع أخواتها البنات الثلاث ، ولم يترك الوالدان
لبنتاهما من أسباب الحياة ووسائل العيش سوى قارب ينقل الناس في نهر
دجلة من شاطئ إلى شاطئ ، مقابل أجر زهيد .

وخرجت رابعة من هدوئها وراحتها لتستقبل الحياة ، وتبدأ الكفاح من

أجل القوت . . خرجت لنتشغل في القارب الموروث ، حتى تستطيع أن تطعم أخواتها الثلاث ، وتطعم نفسها معهن .

وكانت تضيئ نهارها كله في العمل ، ثم تعود مع المساء إلى البيت مكدودة منهوكة متعبة ، فلا يهون عليها شيء ، ولا يسرى عنها التعب سوى الغناء ، وترديد الألحان التي كانت تنبثق من فؤادها وروحها وأعماق نفسها ، والتي ربما رددتها أيضاً وهي تعمل في القارب خلال النهار . .

وذات ليلة رأت رابعة في نومها رؤيا ، ثم عادت في ليلة أخرى فرأتها ، ثم تكررت الرؤيا .

شاهدت نوراً ساطعاً يشمل الأفق ، وأقبل هذا النور عليها فأحاط بها ، وغمر جسمها وحسها ونفسها ، ودخل إلى فؤادها وروحها ، حتى سبحت رابعة في أمواج ذلك النور ، وحتى اغتسلت بهذا النور .

وتحيرت رابعة ، وأخذت تفكر في الرؤيا أثناء اليقظة ، وفي سبحة من سبحات روحها سمعت هاتفاً ينشد الآيات التالية في توقيع أخاذ ، وتلحين رائع :

أحسن من قينة ومزمارٍ في غسق الليل نفحة القارى
يا حسنه والإله يسمعه بطيب صوت ، ودمعه جارى
وخده في التراب منعفر وقلبه في محبة البارى
يقول : يا سيدى ، ويا سندی شغاني عنك ثقل أوزارى !

ولم تر رابعة من ينشد ، ولكنها تأثرت والتاعت ، ووعت اللحن عن منشده فيما يقال ، وجعلت تكرر ، وتفكر في غنائها السابق وألحانها المعهودة لها ، ثم تفكر فيما يدعوها الهاتف إليه . .

ثم رأت فيما قيل بعض الملائكة في نومها وهي تردد الآيات السابقة ، وتدعوها إلى محبة ربها والإقبال عليه ، فتركت رابعة غناءها وألحانها ، وأقيت على عبادة ربها وقراءة القرآن وبخاصة في الليل .



وعلى الرغم من عبادتها وتلاوتها وتهجدها في أثناء الليل لم تنقطع
— فيما يروى — عن الغناء والذئيد، ولكن شتان بين غناء الأمس وغناء
اليوم، وشتان بين ألحان الماضي وألحان الحاضر ! ..

لقد كانت بالأمس تغنى كغناء الناس، وتنشد كما ينشد العامة من البشر . .
أما اليوم فإنها تغنى غناء علويًا، وتنشد نشيداً روحياً دينياً، قد تكون ألفاظه
كألفاظ البشر، وصوره البيانية كصور البيان عند البشر، وقد يظن الناس بها
حين يسمعونها الظنون، وقد يقولون: إنها تتغنى بحبيب بشرى تهواه،
أو إنسان تهيم به، ولكنها كانت تردد ألحان الإيمان، وتنشد أناشيد الحب
الإلهي السامى، وغفل الكثيرون عن هذا السمو الخفى المستور، ولم يعرف
هذا السرّ منها إلا رجل له شهرة في التصوف، وصيت في الزهد، وهو
« معروف الكرخي » .

وحسب رابعة أن يشهد لها معروف الكرخي، فهو أبو محفوظ معروف
ابن فيروز — أو « ابن على » — الكرخي، من أجلاء الصوفية، والمذكورين
بالورع والفتوة، وكان أستاذ سري السقلى .

وكان من دعائه: « اللهم إن نواصيتنا بيدك، لم تملكنا منها شيئاً، فإذا
فعلت ذلك بنا، فسكن أنت وإينا، وأهدنا إلى سواء السبيل » .

وكان يقول: « ما أكثر الصالحين ! وما أقل الصادقين فى الصالحين ! » .
ويقول: « توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ؛
فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرّونك » .

ويقول: « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة
بلا سبب . . نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق » ...



وعادت الأيام إلى رابعة تختبرها وتبتليها وتمحصها . فقد حدثت مجاعة وقحط
وجفاف فى البصرة على عهدها، وكانت المجاعة فظيعةً وجيعة مزلّلة مشتتة،

فتشردت رابعة في الأرض ، وتشئت أخواتها ، فكل واحدة منهن ذهبت إلى
جهة من الأرض .

وقست الأيام على رابعة وعلى أخواتها قسوة شديدة ، فلم تلتق رابعة
بواحدة منهن بعد ذلك أبداً . . ولم يسعفنا التاريخ بتفاصيل كافية وإفية لتلك
النكبة السوداء .

ولم تكتف الأيام بما صبت على رابعة من بلايا ، بل سلطت عليها لصاً
أثيافاً ، تربص لها حتى وجدها مشردة مفردة ، فأخذها مدعيّاً رِقها ،
وباعها إلى أحد التجار أمة رقيقة ، بثمن بخس دراهم معدودة ، قيل
إنها ستة دراهم ! .

وأخذها التاجر الذي اشتراها إلى بنته ، وأذاقها طعمَ البلاء ، وسامها سوء
العذاب ، ولكنها صبرت وصارت ، وظلت تتعبد وتهجد ، وتدعو ربها
وتناجيهِ ، كأن تقول :

كأسي وخمري والنديم ثلاثة	وأنا المشوقة في الحجة رابعة
كأس المسرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلي ، إني أحب جماله	تالله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بت من حرق وفرط تعلقي	أجرى عبوناً من عبوني الدامعه
لا عبرتي ترقى ، ولا وصل له	يبقى ، ولا عيني القريحة هاجعه !



وذات يوم ذهبت رابعة إلى السوق لتقضى لسيدها حاجة ، فأراد ذئب
بشرى الاعتداء عليها ، ففرت منه فسقطت ، فكسرت ذراعها ، ولكنها
احتملت وواصلت فرارها ، حتى بلغت البيت وهي راضية بما وقع لها من
كسر ، ما دامت قد سلمت لها كرامتها وعفتها ، وظلت تناجي ربها تطلب
رضاه ، ذاكرة أنه إذا رضى عنها فكل شيء سهل ميسور .

وكانها كانت في ذلك تتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إلى الطائف يعرض الإسلام على «ثقيف»، ويدعوها إلى الإسلام، فردوه ردًّا قبيحاً، وأغلظوا له الجواب، وحرضوا عليه الغلمان والصبيان، يرمونه بالحصى والحجارة، حتى سالت الدماء من رأسه وقدميه، فعاد الرسول حزينا وناجي ربه فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا رب العالمين؛ أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، وأنت ربي... إلى من تسكني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك، أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك،!»

واستغرقت رابعة في الدعاء والمناجاة، فيقال: إنها سمعت صوتا يقول لها: «لا تحزني؛ ففي يوم الحساب يتطالع المقربون في السماء إليك، ويحسدونك على ما تكونين فيه،!».

وذات ليلة رآها التاجر الذي يملكها وهي تتعبد في خشوع وإخلاص طالبة من الله أن ينقذها من ذلك التاجر القاسي لتتفرغ للعبادة، ويقال: إن التاجر رأى فوق رأسها مصباحا مضيئا غير معلق بشيء، فدخلته الخشية والروعة، وآمن بصلتها العميقة بالله، فأعتقها وأطلق سراحها.

وتحررت رابعة من التاجر والعبودية، وانطلقت في رحاب الحياة، وعاد الغموض يعلو تاريخها، وأخذ الإبهام يحيط بها، ورجع التاريخ يضمن بالتفاصيل والتحديد، وظلت رابعة تصارع الحياة، يصيبها ما يصيبها من سرائها وضرائها، ونعمائها وبأسائها، وتوفيقاتها وعثراتها.

واضطرتها الشدة — كما قيل — إلى حياة المجون، واحترفت حرفة العزف على الناي، بل قيل إنها «اندفعت في طريق الغواية إلى مدى بعيد...».

ولكن بعض الباحثين يفند ذلك القول ، وينفيه بشدة ، وينكر أن
رابعة قد تلطخت بالشهوات على هذه الصورة التي تقال :

ومهما يكن من أمر فنحن نعود فنرى رابعة وقد تابت ، وأدركتها التقوى
البالغة ، واعتزلت الخلق ، وبنت لنفسها مصلى منفرداً ، وانقطعت للعبادة ،
وقيل إنها كانت تقصد المساجد ، وتشهد مجالس الذكر .

* * *

وكانت رابعة العدوية رائعة الجمال ، ساحرة الحسن ، متفجرة الفتنة ،
ومع ذلك لم تزوج . ولقد كان عدم زواجها موضع تساؤل طويل لكثير
من الباحثين ، وبعض هؤلاء يعيبها على عدم زواجها ، والبعض الآخر يعلل
لهذا الامتناع عن الزواج ، ولكل وجهة هو موليها .

وروى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان من كبار الأغنياء ، فدخله ثمانون
ألف درهم ، وقد عرض على رابعة الزواج ، ووعداها بأن يقدم لها هذا
الدخل وأمثاله ، فرفضت وقالت : إنها لا تريد أن تنصرف عن ذكر الله
طرفة عين .

ولقد سئلت عن رفضها الزواج فأجابت : هناك ثلاثة أشياء هي سبب
الهم عندي ، فإذا وجد من يخلصني منها تزوجت .

فقبل لها : وما هي ؟

قالت الأول : إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيماني طاهراً ، والثاني : إذا كنت
سأعطى كتابي يميني يوم القيامة ، والثالث : إذا جاء يوم البعث ، وأخذ
أصحاب الميمنة إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة إلى النار ، فن أي الفريقين
أكون ؟ .

فقبل لها : علم ذلك عند الله .

فقلت : إذا كان الأمر كذلك ، وأنا في قلق من هذه الأشياء ، فكيف
أحتاج إلى الزواج أو أنفرغ له ؟ .

* * *

والناظر فيما نُقلَ عن رابعة العدوية من كلمات ونجويات يرى أنها كانت تبعث
مناجياتها من قلب مكلوم بالهوى الإلهي ، وكبدٍ محترقةٍ بنيران الشوق إلى
رضوان الله عز وجل

ولذلك نتأثر كثيرا بهذه الكلمات التي كانت تقولها ، ويطول وقوفنا
عندها ، متأملين فيها متدبرين لها ، سواء أكانت هذه الكلمات نثراً أم شعراً ،
ولو أننا تتبعنا كل ما نقلته المصادر المختلفة من أقوال رابعة ، وأشعارها ،
لتكون عندنا مقدارٌ ضخم يصلح أن يكون زاداً طيباً للذين يريدون أن يوثقوا
صلتهم بربهم عن طريق الدعاء والمناجاة .

ولكننا هنا نستعرض لمحات من سيرة رابعة ، ونقيّد خطرات أو خلاصات
لمطالعة حياتها وسيرتها في المصادر المختلفة ، فحسبنا إذن أن نورد طرفاً من هذه
الأقوال :

فن نجوياتها النثرية قولها تخاطب ربها في أثناء الليل :

« إلهي ، أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا
كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، .

وقولها تناجيه عند الفجر :

« إلهي ، هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري أقيمت مني
ليلى فأهنا ، أم رددتها على فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأى ما أحيتني وأعنتني ،
وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك » . .
وقولها : « اللهم إني أعوذ بك من كل ما كان يشغلني عنك ، ومن كل حائل
يحول بيني وبينك ، .

وقولها : « إلهي ، ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ،

ولا خير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قمعقة
رعد ، إلا وجدت لها شاهدة بوحدانينك ، دالة على أنه ليس كمثلك شيء .

وقولها : « سيدى ، بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت
الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات .
أنت الذى يبعد لك سواد الليل ؛ وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر
الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك
الله العلىّ القهار » .

ولما فرغت من الذئب الذى أراد البطش بها ، وانكسرت ذراعها ، كانت
تناجى ربها ، وتقول :

« رباه .. قد انكسرت ذراعى ، وأنا أعانى الألم واليتم ! وسوف أتحمّل كل
شيء وأصبر عليه ، فهل أنت راضٍ عني يا سيدى ؟ إلهى .. هذا ما أتوق
إلى معرفته » .

وتقول فى أثناء قيامها الليل :

« قد نامت العيون ، وغفل الغافلون ، وبقيت رابعة الخاطئة بين يديك ،
فلعلك تنظر إليها نظرة تمنعها النوم عن خدمتك ، وعزتك وجلالك لا أنام
عن خدمتك فى ليل ولا نهار إلا غابةً حتى ألقاك ! »

فإذا غلبها النوم من الإرهاق واستيقظت قامت فزعة مذعورة تقول :
« يا نفس كم تنامين ، وإلى كم تقومين ؟ .. يوشك أن تنامى نومة لا تقومين
منها إلا لصرخة يوم النشور ! »



ومن نجوياتها الشعرية قولها :

يا سرورى ، ومنيتى ، وعمادى	وأنيسى ، وعُدَّتْنى ، ومرادى
أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائى	أنت لى مؤنس ، وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياى وأنىسى	ما تشئت فى فسيح البلاد

كم بدت منه ، وكم لك عندي من عطاء ، ونعمة ، وأيادي
حبك الآن بُغيتي ، ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حبيت براح أنت مني ممكن في السواد
إن تسكن راضياً عليّ فإني يا مني القلب قد بدا إسعادي
وقولها تخاطب ربها :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
وقولها أيضاً في المناجاة :

أحبك حبّين : حب الهوى رجباً لآلك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا
وقولها أيضاً :

وزادني قليل ما أراه مبلغي اللزاد أبكي ، أم لطول مسافتي ؟
أحرقني بالنار يا غاية المني فأين رجائي فيك ؟ أين مخافتي ؟
ومن شعرها قولها :

راحتي يا إخوتي في مخلوق وحيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا محنتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا واعنائني في الوري ، واشقوتي !
يا طيب القلب ، يا كل المني جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً نشأت منك ، وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جميعاً .. أرتجى منك وصلاً هل أفضي منيتي ؟

وعاشته رابعة حتى بلغت الثمانين ، بعد أن لقيت من الحياة ضرباً

وأشكالا وألوانا ، وبعد أن ذاق حلو الدنيا ومرها ، ولم تفتها العبادة الكثيرة
حتى في شيخوختها ، وكانت تضع أكفانها أمام نظرها دائما ، لتتذكر الموت
باستمرار ، وكلما ذكرته ارتعدت ، وكانت تكثر من البكاء ، وكانت « عبدة
بنت أبي شوال » ، تخدم رابعة في أخريات أيامها ، فقالت لها رابعة : « إذا
مِتْ فلا تؤذني بموتى أحدا ، ولقيني في جُبِّي » !
وكذلك كان . . .

ومضت رابعة إلى ربها راضية مرضية .

لحقت بالرفيق الأعلى سنة ١٨٠ هـ بعد هذه الحياة الطويلة العريضة ، المليئة
بالعظات والعبر لأولى الألباب وأولى الأبصار ، فسلام عليها في
الصالحين الأوفياء !

بطولة سيد الشهداء

الحسين بن علي ! ... أى جلال يبدو للإنسان فيهره حينما يسمع أو نردد شفاته ذلك الاسم الكريم ؟ ... أى صفحات من التاريخ تلمع كأنها قبس من نور الله العلي الكبير ؟ وأى ذكريات تثور من أعماق الماضي فكأنها ماثلة أمام البصائر والأبصار ، تحدث لأول مرة في الحياة ؟ وأى صور سماوية متلاحقة تتعاقب لتألف منها سيرة ذلك البطل العظيم ، والشهيد المخلد ، والمسكافح الأجد ؟ ! ...

الحسين بن علي .. ولد فاطمة ، وحفيد محمد ، وقرّة عينه في دنياه ، وسيد الشهداء في الدنيا ، وسيد شباب الجنة يوم القيامة ، وخير من وقف في وجه الباطل الباغي المتجبر ، مستهزئاً به ، ناثراً عليه ، متمرداً في وجهه ، مرغماً لأهليه على الإقرار بعظمة أهل اليقين والإيمان ، وأفضل من تحدت دماؤه الزكية فوق أرض كانت تن وتوقع من ضلال سائد ، وظلم فاحش ، وحق مضيع ، لا يسمع له صوت ، ولا يستجاب له نداء ! .

نعم .. ما ذكر الحسين إلا طافت بالمؤمن رهبة ، وشماته رجفة ، وأحاطت به من الجلال والإجلال موجة ، وكأنما الإنسان حينذاك نملة صغيرة تحبو في ظلال جبل رفيع أشم ، فهي لا تحس بكيانها أمام جلاله ، ولا بوجودها أمام عظمته .

وكذلك كان الحسين بن علي على على عمر الأيام ، وسبق كذلك ، يرى فيه الدارسون ما يشبه المثل الرمزي الأعلى الذي لا يبارى ولا يجارى ، وحسب المتمعن فيه أن يشغل نفسه بمحاولة تقصيه ، وأن يشرف ذاته بالانتساب إليه والاندماج فيه ! .

كان الحسين بن علي سيد الشهداء ، وتلك سمته المشهورة ، وصفته المذكورة ، ولكن الدارس لتاريخه حق دراسته يراه أيضاً من ألمع الخطباء في عصره ، وحسبنا أن نسمع منه هذه العظة الوجيزة البليغة ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، قال رضوان الله تبارك وتعالى عليه :

« لا تتكلف ما لا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعد بما لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ، ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً ! .
وكان راضياً بقضاء الله وقدره ، لا يفزع ولا يجزع ، بل يصبر ويسترجع ، ولقد مات له ولد فلم يشهد الناس عليه كآبة ولا دماً ، فقل له في ذلك ، فأجاب إجابة المؤمن الموقن : « إيا أهل بيت نسال الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما نحب رضيانا » ! .

وكان رجلاً يحسن المناجاة والدعاء ، والابتهال والرجاء ، فقد التزم الكعبة ذات يوم ، ودعا بذلك الدعاء الوجيز البليغ : « إلهي ، نعمتني فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني فلم تجدني صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، إلهي ، ما يكون من الكريم إلا الكرم » . ٩١ .
وكان سيد الأجواد في زمانه ، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، ولا يخشى الحاجة ، ويجود جود من يعتقد أن الله يخلف عليه كل ما يبذل ، ويضاعفه له أضعافاً كثيرة ، فقد جاءه ذات يوم أعرابي يستجديه ، فوقف بيابه ثم أنشده هذين البيتين :

لم يبق هندي ما يباع ويشترى يكفيك ظاهر منظرى عن مخبرى
إلا بقية ماء وجهه صنته عن أن يباع ، وأنت نعم المشتري !
فأعطاه الحسين مائتي دينار لعلها كانت كل ما يملك حينئذ ، وأجاب ذلك الأعرابي قائلاً :

عاجلتنا فأناك عاجل برئاً نزرأ ، ولو أمهلتنا لم نقسّر
نخذ القليل ، وكن كأنك لم تكن بعث المصون ، وأنتا لم نشتر

ومما يدلّك أيضاً على أن الحسين كان رجلاً مسماحاً معطاء ، لا يستكثر
ما يتفضل به مهما كان عظيماً ، شأن المطبوع على الجود المفطور على السماح
والعطاء ، أنه دخلت عليه ذات يوم جارية من جواريه ، وفي يدها طاقة ريحان
وزهر ، فقدمتها إلى سيدها ومولاها هدية متواضعة منها ، فسر الحسين بن علي
من صنيعها سروراً زائداً ، وأراد أن يكافئها ، فلم يملك نفسه أن قال : اذهبي
فأنت حرة لوجه الله تعالى ! .

فاغتاضت جارية أخرى له من ذلك الصنيع ، فقالت له : أتجيبك جارية
يا سيدي بطاقة ريحان (لا قيمة لها) فتعنتقها ؟ فأجاب الحسين رضوان الله
عليه : كذلك أدبنا الله ، قال تبارك وتعالى : « وَإِذَا حُبَيْتُمْ نَجِيبَةً فَحَبِّبُوا
بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ، وكان أحسن منها عتقها ! .

رضى الله عن الحسين رضواناً كبيراً ، وجزاه بمقدار جهاده واستشهاده ،
ووفق أمة الإسلام للاهتمام بهدى جده عليه الصلاة والسلام .

البطولة بين المثل الأعلى والواقع

المثل الأعلى هو الصورة السامية ، أو القدوة الحسنة التي يضعها الإنسان أمامه ليحتذّيها وينهج نهجها ، محاولاً بلوغها وتحقيقها ، حتى يصير فاضلاً صالحاً في حسه ونفسه ، فيصبح من « الأمثال » ، وهم خيار الناس وأفاضلهم . وعلماء الأخلاق والتربية يقولون إن المثل الأعلى للإنسان الحى العاقل الحساس لا يقف عند درجة معينة ، بل هو يوالى علوّه وارتفاعه ، فكلما قطع الإنسان مرحلة في سبيل الوصول إلى أمله أو بغيته ، عاد مثله الأعلى فارتفع درجة أو درجات ، وحاجات من عاش لا تنقضى ، ورغباته لا تقف عند حد ، ولذلك قالوا : إن المثل الأعلى غاية لا تدرك .

ويروون فى ذلك قصة قصيرة ، لعل الخيال قد لعب فيها دوره ، وهى أن فاتحاً كبيراً اتسعت فتوحه فى الأرض حتى بهرت الناس ، وكان يتطلع إلى السماء ذات يوم ، فقبل له : إلى أى شىء تتطلع .

فأجاب : انظر كيف أستطيع فتح السماء بعد أن فتحت الأرض ؟ .

والشاعر العربى يقول :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام !

هذا هو ميدان العلم مثلاً . . لا يبلغ الإنسان فيه مرحلة أو مزيداً إلا يريد مرحلة أخرى ، أو مزيداً جديداً ، والعلم أمامه واسع فسيح ، كحيط بلا ساحل ، فلا يزال الإنسان طالباً للعلم ، ولا يزال العلم أمامه متزايداً متجدداً ، ويخلق ما لا تعلمون . .

ومن هنا جاء في الحديث : « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .
 وجاء فيه : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا » .
 وروى ابن قتيبة أنه جاء في الأثر : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ،
 فإذا ظن أنه قد علم (أى اكتفى من العلم) فقد بدأ يجهل ،
 وهذا هو ميدان الكشف والاختراع يتزايد نطاقه كل يوم ، فالإنسان فيه
 قد تدرج من كشف العربة ، إلى السيارة ، إلى القطار ، إلى الطائرة ، إلى
 الغواصة ، إلى البارجة ، إلى المدمرة ، إلى الصاروخ ، ولم يقنع بذلك ، بل أخذ
 يفكر في غزو الفضاء ، وفي الارتحال إلى القمر .

ومن يدري ؟ لعله لو تحقق له ذلك لفكر في شيء آخر بعده ، لأن طموح
 الإنسان لا يقف عند حد ، ومثله الأعلى أيضاً لا يقف عند
 مستوى معلوم . . .

ولا شك أن الكمال المطلق لا يكون إلا لله وحده ، فهو المنزه عن
 النقص والحاجة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، ويقول أيضا : وله المثل الأعلى في السموات والأرض
 وهو العزيز الحكيم . والمقصود بالمثل الأعلى هنا — والله أعلم بمراده —
 هو أن الله تعالى هو صاحب الصفة العليا الكاملة ، من الألوهية والوحدانية ،
 والخلق والقدرة ، والعلم والحكمة ، وأنه متصف بما لا شبيه له فيه ولا نظير ،
 وهذا هو الكمال المطلق الذى لا يبلغه إنسان ، ولا كائن من الكائنات سوى الله :
 « أَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .



والناظر في تعاليم الإسلام يجد أنه يحرض الناس على أن يتطلعوا إلى
 الرفعة والتسامى ، والصلاح فى الأعمال والأقوال والأفكار ، وألا يقنعوا
 بالتافه أو السفساف من الأمور ، بل عليهم أن يطلبوا معالى الأمور ،
 ومكارم الأخلاق ، ومراتب الرفعة ، ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه
 وسلم : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها ،

وقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .
ولكن الإسلام مع هذا يعلم الناس أن المثل الأعلى قمة سامية مثالية لا يبلغها كل الناس ، بل هم يسعون إليها ، فبعضهم يدنو منها ، وبعضهم يبتعد عنها ، وكلُّ مُيسَّر لما خلق له . . ولذلك يضع الإسلام أمام أتباعه طائفة من المثل العليا لتسكون لهم غاية كريمة بعيدة المرمى ، ثم يحرضهم على أن يتابعوا خطواتهم في سبيل الوصول إليها ، والأخذ من ثمراتها ، فالله سبحانه وتعالى يقول على سبيل المثال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

وتقوى الله حق التقوى مثل أعلى ليس من السهل أن يبلغه الإنسان ، فقد روى البخارى أن النبي قال : « حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يُشكر فلا يكفر » .

وقال ابن عباس : « هو ألا يعصى طرفه عين » .
وهذا مطلب سام عزيز ، ولذلك قال المفسرون : إنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ، من يقوى على هذا ؟ . وشق عليهم الأمر ، مع أنهم هم الصحابة السابقون المقربون القائمون بالحق المسارعون إلى ربهم في إخلاص وصدق ، فأنزل الله تعالى قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » . وبهذا كانت الآية الأولى رسماً للمثل الأعلى الذى يضعه المؤمن أمامه ليطمح إليه ويسعى نحوه ، وكانت الآية الأخرى رسماً للخطوات التى يقوم بها الإنسان محاولاً فيها بلوغ هذا المثل ، فهو يبذل ما فى وسعه ، ويقدم ما فى استطاعته ، وبتكرار العمل والمحاولة تتوالى الخطوات نحو هذا المثل الأعلى .



ويقول الله تعالى أيضاً : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » . وحق الجهاد فى الله واجب جليل خطير ، لأن معناه كما يذكر المفسرون أن يصدق الإنسان فى جهاده لوجه ربه بالمال واللسان والنفس ، وفى جهاده للأهواء والشهوات ، وفى صبره على أداء جميع التكاليف والواجبات ، وهذه هى قمة الجهاد التام الكامل ،

ولا بد للوصول إلى القمة من التدرج في خطوات ودرجات يبلغ بها الإنسان هذه القمة .

ولذلك نجد القرآن الكريم يقول في موطن آخر : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ، ومعنى هذا أن الذين يبذلون خطواتهم في المجاهدة يفتح الله أمامهم أبواب السعي المشكور والعمل المبرور ، فَيُسَلِّمُهُمْ طَرِيقًا إِلَى طَرِيقٍ ، وينتهي بهم ميدان إلى ميدان ، وإذا عملوا بما علموا هداهم الله إلى علم مالم يعلموا من قبل ، فيعملون بهذا العلم الجديد .

وهكذا دواليك ، يسيرون في صبر ومصابرة ، والله مع الذين يحسنون العمل ويدومون عليه ، وهو ولي العاملين الصابرين . فحق الجهاد في الله مثل أعلى ، ومتابعة الخطوات نحو هذا الجهاد المثالي واجب يلزم الشروع فيه والدوام عليه .

وإذا كان الله تعالى يقول : « لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ، فإنه يقول : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، ويقول رسوله : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .



وفي تاريخنا العربي والإسلامي مواقف كثيرة تتجلى فيها المثل العليا التي يجب أن تكون نماذج سامية توضع أمام الشباب العرب المؤمنين ، لتشغل أفكارهم بالتدبر فيها ، وتشغل أبصارهم بالطموح نحوها والتطلع إليها ، وتشغل حواسهم وعزائمهم بالاقتراب منها والسير على طريقها ، ومن حق هؤلاء الشباب علينا أن نبسط أمامهم ما يمكن عرضه من هذه المثل العليا ، لينطلقوا في ساحات العمل والكفاح شعلا متقدة تصهر نفسها لتمحصها ، وتضيء الطريق أمامها لتضيء على نوره ، وليضيء معها غيرها نحو غايات من المجد والرفعة والجلال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

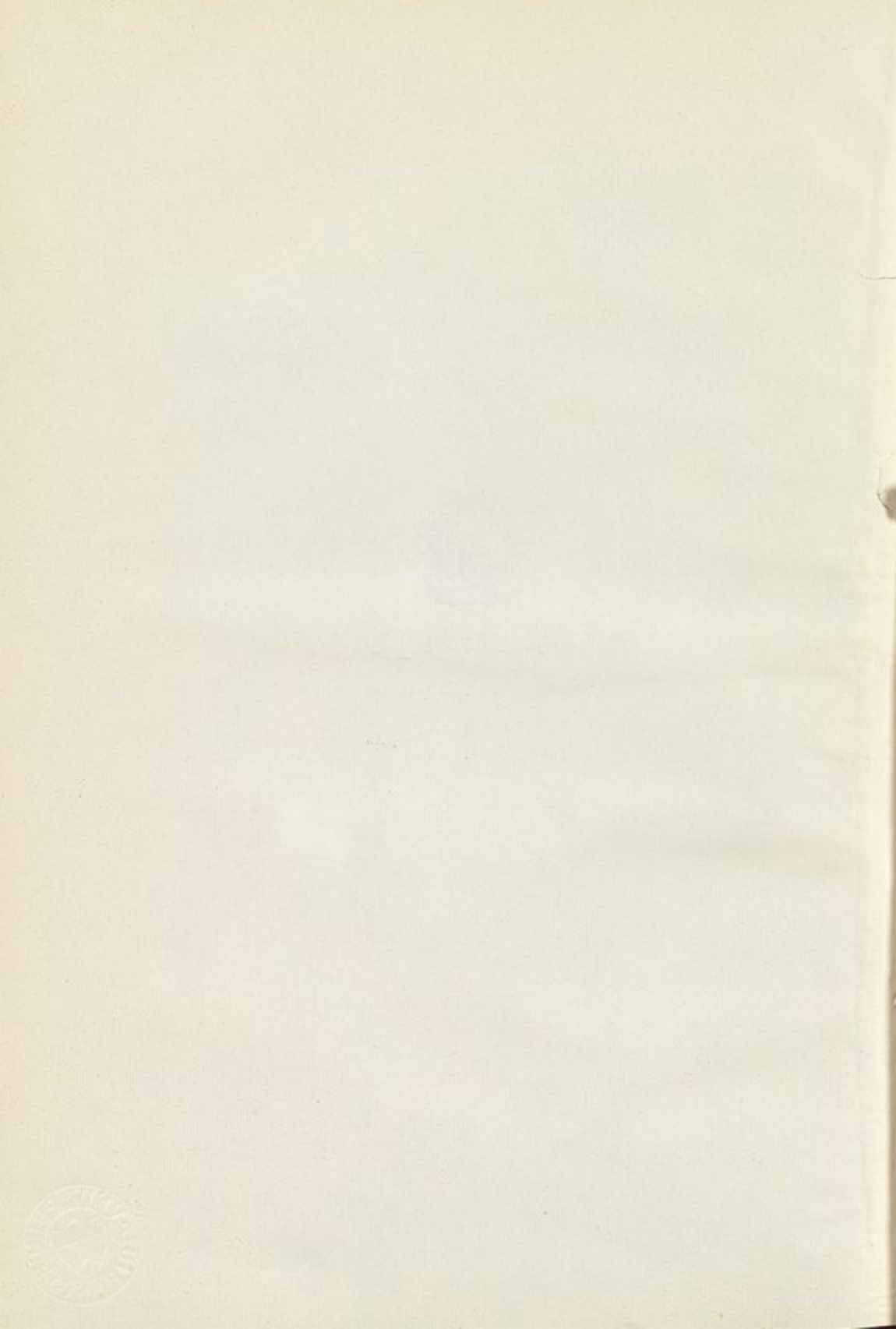
خاتمة

ونبلغ الآن من الطريق مرحلة قد يحسن الوقوف عندها ، ولا أقول يحسن الانتهاء بها ، فما زال الطريق ممتداً ، وما زال الباب عليه مفتوحاً ، فإن أحاديث البطولة في تاريخ أمتنا العريقة كثيرة غزيرة وافرة ، وكلها تطلب الإنسان منها المزيد أسعفته بما يريد

فلنقف اليوم عند هذه المرحلة ، ولنتدبر في الخطوات التي خطوناها خلال المجموعة السابقة ، ومن يدري ؟ : لعل الله الذي تم بفضله وجلاله الصالحات ، يكتب لنا عودة إلى الاجتماع على طائفة أخرى من أحاديث البطولات والأبطال ، وعلى الله قصد السبيل .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٦	قبس من كتاب الله
٧	شعار
٩	تصدير
١١	ألوان من البطولة
١٥	بطولة إباء
١٩	بطولة نأثر
٢٥	بطولة اهتداء
٣٠	بطولة عدالة
٣٢	بطولة مرمحة
٣٧	بطولة قدوة
٤٥	الطريق إلى بطولة النصر
٧٠	بطولة سماحة
٧٥	بطولة أريحية
٧٧	بطولة مكارم الأخلاق
٨٢	بطولة حلیم
٨٤	بطولة عزة
٨٨	بطولة رجولية
٩٣	بطولة مروءة
١٠١	بطولة الفروسية في الإسلام
١٠٥	بطولة الثبات على المبدأ
١٠٩	بطولة تائبة (رابعة العدوية)
١٢٢	بطولة سيد الشهداء
١٢٥	البطولة بين المثل الأعلى والواقع
١٢٩	خاتمة





الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبّين - روض الفرع

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣ } ليلفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }





الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } للفيون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 074331271